دار قابيل

رواية

عنوان الكتاب : دار قابيل
المؤلف : ناهض الهندي
التصنيف : رواية
الطبعة : الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٤
ISBN : 978-9922-8850-2-5
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي

DAR AL-SARD BOOK SHOP

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٠٠٠٠) لسنة ٢٠٢٤م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook

ناهض الهندي

دار قابيل

رواية

٢٠٢٤

(لــيس مســتحيلاً أن تقضــي في الســجن، عشراً من السنين، خمس عشـرة وأكثـر، ذلـك ممكن شريطة ألّا تسوّد الجوهرة النائمة تحت ثديك الأيسر).

ناظم حكمت

إهداء

إلى الذين تعلمت منهم أن معنى
الحياة الحقيقي
يكمن في الموت تحدياً للظلم
والظالمين.

1

صيف ١٩٨٢ يستعر بطقس جهنمي من لهيب حربٍ اشتدّ أوارها، بتصاعد ضراوة المعارك بين جيشي العراق وإيران. هزائمٌ عسكرية ثقيلة لحقت بالجيش العراقي كبدته إضاعة مساحات شاسعة من أراضٍ إيرانية كان يهيمن عليها إلى وقت قريب، واضطر عشرات الآلاف من الجنود العراقيين على الاستسلام في انسحابات فوضوية. وقائع أخذت من معنويات النظام مأخذاً كبيراً؛ وأفقدته جادة الصواب. صار البلد مثل غابة قاسية مظلمة تبعث على الخوف، ليس في ارتكاب أفعال تنم عن عدم الرضا على ما يجري، بل حتى في خواطر الأفكار والسرائر في غمار حملة واسعة استهدفت أي شخص له علاقة بالمعارضة السياسية. لم يكن مهماً البحث عن طبيعة هذه العلاقة، إن كانت صادقة أو قائمة على شبهات وشكوك، بل ولو كان مردّها أوهاماً فانية، فمهما كانت فإنها في النهاية مسارات تقود باستقامة إلى محق صاحبها من الوجود. أما من يتجاسر ويجهر برأي معارض للحرب أو يبدي قلقاً لانتهاكات حقوق الإنسان التي تلاشت من الوجود، فإنه يتطوع بوضع نفسه تحت عجلة قمع واضطهاد جبارة، لو قدّر لها السير فوقه لكان أمره أشبه بمن يضع نفسه في درب حادلة

تمشي فوق طريق عُبّد بالإسفلت للتو، لا تخلف غير صفحة سوداء خالية من أي أثر ولو كانت ندوباً.

في ظهيرة من ذاك الصيف وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر آب طرق باب بيت في إحدى ضواحي بغداد رجل في العقد الثالث من عمره يرتدي بزة عسكرية، بمعية شاب رشيق مشدود الجسم بثياب مدنية. زعما أنهما بصدد جمع معلومات إحصائية، لتحديد موقف الشباب من أداء الخدمة العسكرية في صفوف جيش رديف للجيش الرسمي تقوده عناصر تابعة لحزب السلطة يسمى الجيش الشعبي. تظاهر ذو الملابس العسكرية بأنه عاكف على تدوين أجوبة رب البيت، إلا أنه لم يقوَ على إضمار اضطراب غمره، كأنه يهاب وقوع شيء مهول. لمحاته وتحركاته كانت تنم على أنه مورط بأمر لا يرغب أن يرتبط باسمه، بخلاف الرجل بالملابس المدنية فقد ظل واقفاً متحفزاً طيلة الوقت، مع أنه لم ينبس ببنت شفَة، إلا حينما انتهى صاحبه من تدوين الردود على الأسئلة الوهمية. قال لصاحب الدار بلكنة تفصح عن أمر أكثر من أن تكون التماساً: نريد أحد أبنائك أن يحضر معنا إلى الفرْقَة الحزبية لاستكمال تدوين المعلومات المطلوبة. وقع اختيار الأبُ على أكبرهما لمرافقتهم، ظناً منه أنه بفعله هذا سوف يحفظ ولده الأصغر الذي كان قد اعتقل قبل سنوات قليلة بتهمة سياسية. طلب منه أن يغير ملابسه

لمرافقتهما وَسَط اعتراض من ذي الملابس المدنية الذي بدا مستعجلاً في إتمام مهمته قائلاً:

- لا يوجد مبرر لذلك، فالأمر لن يستغرق سوى دقائق قليلة، كما إن الفرْقَة الحزبية لا تبعد كثيراً.

سرت معهما إلى باب البيت الخارجي، ثم على حين غرة رأيت نفسي مرصوصاً بين زنود قوية تتلقفني لأحشر بينها على مَقْعَد خلفي لسيارة إيطالية سرقت لون السماء، خرجت بسرعة من حيث لا أدري، كأنها شبح انسل من العدم. لم أعِ شيئاً مما كان يجري. دفعت بصري مستقيماً باتجاه باب الدار، أريد عبثاً التشبث به كأنه حبل نجاة لغريق هوى فجأة في قاع نهر، إلا أني لم أرَ سوى شقيقي الأكبر يترجل من عربته وقد امتقع وجهه فزعاً. يحلق فيّ وقد غطس في يم المفاجأة وبحر الدهشة من طريقة الاختطاف. وهو يراني أحشر بين الأجساد المفتولة في تلك العربة غدا وجهه مثل وجه غريق أخرج للتو مبهور الأنفاس يحدق بذعر في المياه الخطيرة. تعابير وجهه روت حجم استشعاره بالمعضلة التي قد وقع فيها شقيقه. لم يكن ينظر إليّ، بل كان يرسل كلمات ألجم الموقف لسانه عن النطق لمغادرٍ لن يعود في الأغلب، وإن عاد سوف يرجع بحمولةٍ ثقيلةٍ من الأحزان والهموم، وسيكون بعد انتظارٍ صعبٍ لزمنٍ مديد وخيم مشبع بالليالي الحزينة الطويلة.

سارت العربة بيّ مسرعةً إلى دار قابيل حيث يقطن حفدة

حاملي إرث جريمة قتل أخيه الإنسان. إلى بيت يسلخ عمر من يدخله، ويكابد فيه العناء والحرمان من كل شيء، والأكثر إيلاماً فيه هو الحرمان من أيّ عاطفة إنسانية. بيت مظلمٌ، بل عالَمٌ مزدحمٌ بالحوادث والانفعالات، وكذلك بالناس. كونٌ مكتظٌ بكائنات متباينة لن يحظ ساكنه بفرصة واحدة ليكون بمفرده، إلّا حين يكون في الخلاء. وهل فيه خلاء وهو المزدحم بالكائنات؟ حتى هذا الموضع الاستثنائي الذي لا أجد له وصفاً يليق به يضطر لمشاركته في بعض الأحيان. من ينتقل لهذا الكون الجديد الثقيل بكتلة ضخمة من أهوال وعذابات مثل ثقب أسود يبتلع كل شيء، حتى ضوء الشمس. يعجز القلم عن تصويره، لأنه بكل بساطة لا يمر بذهن ولا يخطر على بال. وما هو بعيد من التصور، من المؤكد أنه من الصعوبة بمكان أن يصدق المرء وقوعه.

دارٌ تجتمع فيه زخم فوضى وكوابيس مرعبة بتراص كثيف ليل نهار في حيز محدود لتخلق أسطورة خيالية، كأنها جحيم الرب التي لا تنقضي عذاباتها، وتصرخ بشراهة جشع شايلوك هل من مزيد؟ جحيم يودع في كيان واردها ألماً يتلوى ولا يقوى على السيطرة عليه، بالرغْم من محاولاته غير متناهية العدد للفرار منه، والتي باءت جميعها بالفشل. ألمٌ يضطجع معه في الفراش، ويسير إلى جنبه في الطرقات. وحينما يختفي ظله في الفيء أو بحلول رداء الليل يخرج بكامل رأسه، مع أن

وجعه متسمرٌ طوال الوقت، يرتقي على أكتاف البؤساء المعذبين في جحيم آلهة الانتقام، ويعلو هاماتهم. لا سبيل للخلاص من أنينه المستدام، ولا من نشيجه الصامت في عويله، ولا من بكائه الصاخب بلسانٍ أخرس.

ليس بوسع من لم يكن هناك أن يطّلع على ما جرى إلا من شقوق ذاكرة مثقوبة لكنها لن تشعره بَرْدَ الظلام، ولا وحشته أبداً كما شعر من ولجه. سوف تغيب أشياءٌ عديدة لا يحصى عددها، تخفيها حلكة ظلام داكنة خيمت على وقائع ذلك المكان المنسي، كما هي الحقائق، ليس هناك من أحدٍ مقتدر على جمعها كلها؛ لذا طاش الكثير جداً مما كان يجب سرده. وللإنصاف لابد من القول بصدق، إنه سرد لا يحمل المتعة مثل حكايات العجائز التي تخرج مقترنة مع دفء المواقد في ليالي الشتاء الطويلة الباردة. وهو ليس بحديث عن مآثر أفراد قد قضوا، ولا تطلعاً لتجريم أحد. إنه بكل بساطة مخرجات معاناة، تمخضت عن أمنية -تبدو محالة أو كادت أن تكون-، بألّا يذوق هذا العذابَ أحدٌ، وإن كان الجلاد المنوط به شواء ضحاياه.

مكان قاتم شديد العَتَمَة، مغلق بإحكام مبالغ فيه، إلى درجة لم تسنح فرصة واحدة لمغادرة الزنزانة العفنة برطوبتها، الحالكة بجدرانها الرمادية الغامقة، والمزدحمة دائماً بأجساد كائنات، بشرية أو من حشراتٍ وهوام. لم يتسن طيلة سنواتٍ

مسهبة في أزمانها، ولا لساعة واحدة فيها أن تنفس أحد من ساكنيها هواءً نقياً، ولا أن سطعت شمسٌ عليه. كانت صندوقًا في كون مغاير أخال أنه لم يكن يقوى أي موجود خارجه على رؤية ما في داخله. لست أقول هذا للمبالغة مطلقاً، ولكن لأن صرخات الوجع ودعوات الاستغاثة لم تسمع ملبياً لها لا من أحد في الأرض ولا في السماء. وإذا كان الأمر هكذا فكيف سوف يسنح لأحد أن يطلع عما جري فيه ولو بعد حين؟ نعم، يمكن ذلك للمتلصصين باستراق النظر من شقوق صغيرة في جدرانه الصماء حفرتها آلام القاطنين فيه. إلا إن أشق النظر وأصعب الرؤية هي أن يشخص المرء ببصره في صندوق غاب عنه النور كلياً ليبحث فيه عمّا يدله بما يجري في داخله.

2

حُشـرَتْ كومـة قطـن بـين عينـيّ وزجـاج نظـارتي الطبيـة، وأُنزِلَ رأسي إلى ما بين ركبتي. قُلّدْت أساور عرس الحرية التـي سـوف أزفّ لهـا، بعـد أن أرجعـوا معصـمي إلـى مـا وراء ظهري. طلبوا مني أن أسير على هدى كلماتهم، مع إن الوقت كـان سـاعة نهـار، والشـمس تسـمق فـي كبـد السـماء تنيـر كـل شيء، خلا عالمي الجديد الكامن خلف عيون السماء.

- سر يميناً.. اذهب إلى اليسار.. اخفض رأسك.

لا أدري مـاذا أفعـل! لا أملـك سـوى الإنصـات لحـوار داخلي، كان سؤالاً يشبه صرخة ضالٍ شتاءً في صحراء قطبية حيث تموت النجوم، يحذوه جواب أخرق يزيد من حيرته. هل أصدق كلماتهم وأسير خلفها، لعلهم ينوون إرشادي فعلاً لتجنب طريق متعرج ملتوٍ أجهل أبعاده وتضاريسه، أم إنها نقطة الشروع في عصور سخرية لاذعة عليّ تجرع مرارتها في قادم الأيام؟ انتهت سكة سيري إلى حجرة أحطت بتفاصيلها كافة بمنتهى الدّقّة ما أن ولجتها، مثلما جهلت كل شيء فيها بشكل مطلق. لم تكن سوى ظلامٍ دامسٍ يطوق مقعداً خشبياً كأنــه كــان مصــطبةً طويلــةً تحسســت ملمســها بمــؤخرتي المتضخمة بصفعات الأحذية العسكرية. كانت تتسع لآخرين إلا أنه لم يشاركني الجلوس عليها أحد منهم. كانوا بعيدين

في منطقة ضائعة فيمَا وراء الواقع وخارج أحاسيس الوجود الكوني الهائل الذي لفظني خارجه للتو، مع أنهم كانوا على بعد خطوات قليلة مني يتناهى إليّ أنينهم. يرسمون بتأوههم صورة في السراب مثل شمعة تنحل سريعاً بعد أن تمسها النار. لم أستسلم لفضولي المعتاد الذي كان يغويه للتحقق من أي أمر أصادفه، ولم أجرب حدسي بحصر من يحوم حولي في هذا الفضاء الصغير. كنت خائفاً، بل مرعوباً إلى حدٍ عارم، ومرتبكاً بشكل هائل إلى مرحلة لم أعد قادراً على لملمة أي خاطرة تطوف في جمجمتي. اقفر رأسي من الأفكار تماماً، وصار مثل بِرْميل أجوف تتلاطم فيه الأصوات فتختلط بصداها وتتكسر بلا معنى، ولا يمكن حتى لإله كبير بحجم زيوس أن يفهم دلالتها، لأنها كانت أعجز من أن تقوى على حمل فكرة.

لم ينقض الكثير من زمن ثقيل كل لحظة فيه كانت تسحقني بحمولتها الباهظة من الخوف والقلق، وإذا بوجهي يغطس في سيل صفعات توالت عليه شلالاً غزيراً. غَرَقْت في وحلها وعلقت برأسي مخاوف وهواجس شتى، حين كان يخترق سمعي صراخ من بدأت حكايته قبلي الذي لم تبد لي شيء من ملامحه سوى صرخات كان يستنجد بها الصمّ. أسمع من كل جانب نواحاً وصوت ألم مبرح وصدى عذاب يخرج من ذاك الملوع ولا أرى من يطلقه. خلته أنا، فاضطرب

جسدي الغض ودسّ في روحي مزيدًا من الرعب. تتعالى قهقهة شرطي يجلس بالقرب مني يسأل باستهزاء: هل حان زمن الولادة، أم إنها متعسرة؟ سؤال فضح جوع مسعور للسخرية يختبئ في هذا الحارس الأمني مثل وحش ماكر يربض وراء شجرة متشابكة الأغصان لا يبدو منها ضوء ولا يخترقها مطر، يتحين فرصة ينقض بها على فريسته.

تعاظم صدى الصراخ وتهكم الحارس فبعثا فيّ خوفاً أعظم، وارتجافاً مثل تطاير أوراق الأشجار النفضية في الخريف. ابتلت ثيابي بعرق فزع المواجهة الأولى، وهي التي اعتادت أن يرطبها جسد يتصبب عرقاً حتى في أيام الشتاء الباردة. قيظ آب عقد تحالفاً متيناً مع الذعر، فأغرق الجسد المطواع في بحر من العرق بعد أن جُرَّ بعد مدّة وجيزة إلى غرفةٍ باردةٍ بجميع ما فيها، وأجلس عنوة على كرسي حديدي. أزيلت العصابة عن ناظري لأتعرف لأول مرةٍ على حفيد قابيل يتنصب أمامي مغروراً مزهواً بزيه العسكري وقد تدلت من على كتفيه نجمة صفراء يتيمة. أحفاد بصور متعددة وماهية واحدة، فلا أبرع من الشيطان في إتقان التنكر، ولن يعجز عن الاختباء ولو تحت جلباب قديس. صور تتكاثر مثل قنبلة انشطارية تأبى التوقف عن التناسل، ولن يصرع الشيطان إلّا حين نرحل إلى أرض ليس فيها للغرائز من مقام.

ضابط صغير برتبته، وسنه، وبكل ما فيه، كان يبدو على

ضموره محملاً بشهوة جامحة للانتقام تجعل الكثيرين يغطون في بؤس وشقاء. ضحك ساخراً وهو يشير إلى هيئتي التي بعثرها العنف الماطر. لمّح بكلمات مقتضبة في إيحاء إلى تهمة منتظرة كانت ترحل بمن يصادفها سريعاً إلى موتٍ مثل طاعون أسود شاع انتشاره بين الهامسين بحلم الحرية. بعد لحظاتٌ قليلة من بدء هذه المقابلة وجدت نفسي تحت الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وصار يوزع على جسمي النحيل ضربات تحمل ما أوتيّ هذا الضابط من قوةٍ غير عابئ بمحل وقوعها. كان يزحزحه من موضع إلى آخر كأنه يستعجلني الذَّهاب إلى حيث تصمت الشمس. في تلك اللحظة بالذات جمعت شتاتي الذي فرقته مفاجأة الوهلة الأولى، واستعدت وعيي الغائب. أدركت أني لم أعد إنساناً في هذا المكان، فسارعت إلى نفي التهم التي ألقيت عليّ. كان حواراً عبثياً، لا يعدو عن لهوٍ أراد سبط قابيل أن يهدر به بعضاً من وقت فراغه. هذا التحقيق العبثي المقتضب مع إنه كان قصيراً، إلا أنه كان أنموذجاً وافياً لرحلة طويلة الرعب والظلام، التي نقلت إليها قسراً منزوع الإرادة، كأني استقل قارباً أضاع الدفة، ويبحر بشراع تدفعه الريح في كل اتجاه لأنها فاقدة له.

قبل أن يكمل عقرب الساعة دورة كاملة اغتال بها الساعة الأولى، عادت زنود غليظة، لتغطي عينيّ بعصابة جلدية سوداء

فـي طرفيهـا قطعـة بلاسـتيكية أحاطـت برأسـي وكتمـت عنـي الرؤية بالكامل. دخلت برفقتها إلى بناية عالية متعددة الطوابق، متسلقاً أدوارها بمصعد كهربائي. كل شيء كان يتغير بسرعة، أفراد الأمن، أماكن الاعتقال، إلا العصابة مزمنة على حجب بصري والحديد يجمع ذراعي من الخلف. ثم قيدت به إلى شيء ما كأنه عمود، لـم يتسن لي رؤيته ولا تحسسه. وكيف لي فعل ذلك، وقد تلقيت إنذاراً وأنا أوثق به بأني سألقى عقاباً قاسياً إن بدرت أدنى حركة مني أو نبست ببنت شفَة؟ لـم يكـن أمامي مـن حلٍ إلا أن أكـون فتىً مطيعاً. كنـت مرهقاً بشـعور فاحش مـن السـخط، وأنـا أرى الأشـياء كلهـا تـذوي ولـم تعـد بيني وبينهـا أية وشـيجة. لـم يكـن أمامي مـن خيـارات جمـة، سوى سبيل واحد أن أكون أبكـم كفيفاً مشـلولاً. كنت ممتقعاً لحـد الجمـود، مـن ألـم داخلـي لا أجـد منفـذاً بـين الكلمـات لتصويره. ورغم هذا فإني لم أفقد القدرة على حدس الوقت. كنت موقناً إنها بحدود الساعة الرابعة عصراً. مستدلاً عليها من صوت عندليب أسمر يملك عشاقاً كثر ولا يجهله أحد. صـوت عبـد الحليـم حـافظ الشـجي فـي برنـامَج يسـمى فلـم الأسـبوع يعـرض بعـد الظهـر مـن كـل يـوم جمعـة. كـان ينشـد فلسـفة إيليـا أبـو ماضـي -فـي مقطـع مـن فـيلم الخطايـا- بـألمٍ رقيق. يفوح عطر الوجع من تلفاز قريب مردداً.

أين ضحكي وبكائي وأنا طفل صغير.

أين جهلي ومراحي وأنا غض غرير.
أين أحلامي وكانت كيفما سرت تسير.
كلها ضاعت، ولكن كيف ضاعت.
لست أدري.

انتابني شعور مُرٌّ وإحساس غريب لا يسعني وصفه، بأن ما أسمعه لم يكن اغنيةً ولا شعراً، بل هو استشرافٌ لمستقبل قريب مثل حدس سكان البراري القاطع باقتراب العاصفة من مجرد تغير الجو وتثاقله. حدسٌ صادق بهبوب إعصار مداري من ليالٍ حزينةٍ طويلةٍ، سوف تلفني بعمودها الفارع في طوله كأنه صرح هامان يتحدى به السماء. وسيأخذني بعيداً إلى قلبه المظلم تائهاً حائراً لا أجد شيئاً أتشبث به سوى الفراغ. لم تكن موجةً تشاؤم ولا نوبة تطيّر تمر على مسكين بائس بلغ به اليأس الزبى، ولا هي نبات طفيلي بلا جذر نبت للتو على بركة الحزن، بل إنها مثل نبوءة نوح بقرب حلول الطوفان. كما لو أني كنت أرى شبحاً قادماً من خلف أسوار الطبيعة، فآمنت به واستقر راسخاً في حناياي سرمداً مثل يقين صوفي بعد مكاشفة. كأني عارف تقدّم في مسير السير والسلوك، فأشرقت الأنوار في قلبي، وتفتحت أمامي أبواب المشاهدات، فبلغت مستوى فوق الإدراك، وبتُّ أرى سنوات ضياعٍ طويل في غيبوبة جب عميق تنتظرني. سوف أرقد هناك أتطلع إلى السماء المحجوب نظرها عمّا يجري على الأرض،

بانتظار دلو ينزل عليّ من سيارة غرباء تسحبني بعيداً عن أرض الأخوة التي تختزي من أفعالها الذئاب.

لم تكن مصادفة فريدة، بل نبوءة لن تبقى يتيمة، تظهر في غير مرة تمد رأسها من عالم خياليّ مُبْرزة أحوال لاشعورية تدعو للعجب والاستغراب. ليست أوهاماً، بل هي الحقيقة الوحيدة التي سوف أعيشها في عالم سريالي يجري بمسار غير مفهوم وبمنطق عصي عن الإدراك. أحوال تنأى عن العلم والواقعية، ولا تجد من نسب لها غير الباراسيكولوجي، إلا أنه يصعب تجاوزها على الرغْم من غرابتها. وجودها أدل دليل على حصولها، ومهما قيل إن كل شيء قد وقع عرضيا بطريق الصدفة، فإنها تبقى محيرة، لأنها قد وقعت فعلاً. حينما تحدث لا يبقى سوى الإيمان بها كما ترى وليس كما ينبغي أن ترى، ليس لأن العالم المضطرب قد جعلها شبيهة له في تخبطه وحيرته؛ ولا لعجزي عن تفسير ما يجري أمامي، بل لأنها وجود تدركه النفوس فقط حين تتخطى المادة وعوالقها. ربما المعادلات الرياضية تختزن من القوة الكثير لتفسير ما يجري في حدود هذا العالم المادي، ولكنها تقف عاجزة بالمطلق عن إصابة أصل مصدرها الما ورائي، ولا تجد سبيلاً لإدراك سر هذه الجزافية التي أنتجت هذه النسقية المنتظمة.

3

جلسـت بمحـاذاة مـا افترضـته عمـوداً بسـكونٍ خـارجي مطلق، واضطراب داخلي كأنه إعصار يدور بلا حدود للزمان والمكـان. لـم يقطـع هيجـان خـواطري وبلبلـة أفكـاري سـوى استدعاء لتحقيق شكلي مع شخص كان يعمل بشكل إداري نمطي. لم يكن معنياً بنوع التهمة المزمع توجيهها لي؛ فراح يسأل عن اسمي الكامل ومعلومات عامة مثل السن والوضع الاجتماعي والدراسي الخ. انتهت مهمته ليتسلمني من اقتادني إلـى قبـو فـي البنايـة ذاتهـا، يتكـون مـن قاعـةٍ كبيـرةٍ وزنـزانتين وفسحة تتوسطها فيها حمام مشترك لسكان الزنزانات جميعاً. أجلست معصوب العينين ناحية حائط في ركن غدا لي محلاً راسخاً ليقظتي ومهجعي. يداي المقيدة للخلف وعيناي التي يحول بينها وبين النور عصابة ظلا على حالهما لأحد عشر يوماً كاملة بلياليها. حينما يقدم لي الطعام كنت مضطراً لتناوله بكفين مقيدتين إلى الخلف تغرف بصعوبة من صحن معدني وهمـا تقبضـان على ملعقـةً مـن حديـدٍ رخيص بالكـاد تلامـس شفتي. كنت في بداية رحلة الخوف، ولا يخفى ما للبدايات الصعبة من تأثير في المزاج خصوصاً الشهية، بيد إن الطعام كان شهياً بوجبات مشبعة وطهي ممتاز، طعم ومذاق لم أشكُ منه أو أقرف. لكن ليس لوقت طويل، إذ كان عليّ بعدها أن

أغضب نفسي على تناول ما يقدم لي، مع إني كنت أتضور جوعاً. أيّ وجبة طعام يمكن أن تكون في زمن القحط والجوع لذيذة المذاق تسكر الطاوي بريحها العطر، فاذا لم يستسغها في هذا الزمن الأجدب فهل يجدي وصف بؤسها؟

الاستحمام ممنوع لا يجرؤ أحدٌ على التفكير فيه، فضلاً عن طلبه من حراس حانقين طيلة الوقت بلا سبب. مع حالهم هذا يصبح السكوت ليس من ذهب، بل أغلى من أي معدن وأنفس مما جادت به الطبيعة قاطبة. شجارهم المستمر فيما بينهم كان حافزاً ينهاني عن التفكير في مخاطبتهم، وليس في التماس شيء منهم وحسب. إذ كان من العسير عليّ أن اعلم ما الذي يرضيهم، إذا كان سبب تافه للغاية يغضبهم، بل ويدفعهم إلى تبادل أقذع السباب وأفحش الشتائم. اندلع شجار بينهم يوماً، لأن أحدهم جر على الأرض كيساً للخبز يروم توزيعه على المعتقلين فاحتج عليه زميله طالباً منه أن يرفعه. لم يتوافقا؛ وإذا بصخب هائل يبغتنا تهتك ستره عن نشوب عراك باطش بينهما إلى حد الاشتباك بالأيدي صاحبه تراشق بكلمات نابية لاذعة، ولم يكن لينتهي لولا شفاعات من زملاء لهم بذلوا غاية جهدهم في التهدئة، مخافة بلوغ نبأ عراكهم إلى الضباط، وحينها سوف يعاقب الجميع. سكن النزاع وتلاشى من الفضاء الصخب المزدحم بكل مفردات المعجم التي تنال من الآلهة والأديان ومقدسات ومحرمات لا

تجد من يدافع عنها بينهم. في بيئة نظير هذه لا يوجد اختيار للمرء حينما يحشر فيها إلا أن يتحول إلى حجر صامت يجلس واجماً بلا حراك، لان أيّ تأوه منه سيجعله هدفاً مشروعاً في مرمى نيران غضب وحوش تتصارع في غاب موحش، ومن السهولة بمكان أن يتحول إلى كيس ملاكمة يفرغون به عن غضبهم ويفضون به اشتباكهم، ومن يدري فقد يدك عنقه إهمالاً أو بالخطأ.

بعد أكثر من أسبوع وبلا مقدمات حظيت بمنحة غير منتظرة، فقد أغدق عليّ أحد الحرس إبريق ماء كان له الفضل في إزاحة عرق تكدس لأكثر من أسبوع من الخوف، والطقس الساخن، وخنقة القبو المغلق الرطب. ما الباعث وراء هذا السخاء؟ لربما بعد عهدي بالاغتسال بعث رائحة كريهة من عفونة الثياب المشبعة بالتعرق في ذاك الصيف القائظ، أو لعلها نفحة إنسانية هبت على الحارس فحركت راكد فطرته، أو هو واجب روتيني مناط به. لم يستغرق الاستحمام سوى بضع دقائق لا تتجاوز أصابع الكف الواحدة، لكنها كافية لإراقة محتويات الأبريق الصغير بحرص فائق لينال سائر بدني قسطه من الماء. بيد أني ظلّلت واقفاً عارياً حيران لوقت أطول. تعسرت عليّ الإجابة عن سؤالٍ كشفته اللحظة. كيف لي أن أنشف ما علق ببدني من الماء؟ إلى هذه اللحظة لم أكن خسرت الثقة بطيبة الناس، فافترضت بسذاجة أن ما حصلت

عليه من ماء كان تسامحاً وكرماً من الحارس؛ مما حثني على أن أستعيد شجاعتي وأطلب منه منشفاً. ردّ عليّ بقهقهة عالية مقتضبة كانت مزيجاً من نزرٍ يسيرٍ من الشفقة وكمٍ وافرٍ من التهكم.

- هنا لا يوجد شيء اسمه منشفة.

هزأت أنا الآخر من جهلي المدقع للأبجدية الجديدة، التي لم تعلمني إياها أعوام طويلة في المواظبة على الدروس، والاستغراق في مطالعة أيّ حرفٍ مسطورٍ على قرطاسٍ يقع بين يدي أو يلوح لناظري. كل ولعي بالمطالعة وأدماني على قراءة أي كتاب لم ينجح في فك شفرة أول اختبار. فقت من غيبوبتي، وأدركت أن مدرسة جديدة قد احتوتني سوف تعلمني دروساً مقررةً في منهج الصراع من اجل البقاء. دروسٌ سيفهمها كلٌ بما يشاء، ستنتج مرةً عرياً فاجراً وتارةً دثاراً للأنبياء. دروس تسحق الكسالى البلداء وتسمو بأضدادهم بعيداً إلى حيث تتوحد الأشياء بالأحلام.

كان المكان يضج بأصوات معتقلين لم أر أحداً منهم، وأجهل ما الذي يجري بينهم أو عليهم. كنت جاهلاً بأشياء كثيرة تحيط بيّ فلم أكن أدري أني في مديرية أمن بغداد، ولا أعرف شيئاً عن التهمة التي اعتقلت بسببها. انهار بعضٌ من جبل جهلي في ضحى يوم حينما سمعت جلبةً كبيرة وصخباً غير مألوف. كثير من أقدام حافية تمر مسرعةً مهرولةً، ابوابٌ

تفتح وغيرها توصد، سلاسل يقرقع صوتها حينما ترمى على الأرض، وأخرى تزمجر غاضبة وهي تصك أسنانها على المعاصم. ثم أعقب ذلك صمتٌ مطبق، وسكونٌ قاتل لا يحتمل أخذ مدى زمنياً طويلاً، وعلى حين غرة بدد مثل إناء بلوري ارتطم بأرض صلبة فتهشم إلى شظايا بزعيق حارس حانق موجهاً كلامه لي بطريقة فجة تنم عن فظاظة صاحبها وقسوته.

- قم!

وقفت منصاعاً للأمر، وطرق سمعي صوت مفتاح يدور في القيد لتطلق يديّ لأول مرة منذ اعتقالي. ثمّ أذن لي برفع العصابة عن عينيَّ لأجد أمامي باباً مفتوحاً يؤدي إلى زنزانة صغيرة عارية فرشت أرضيتها الإسمنتية الخشنة السوداء ببطانيات عسكرية وتكومت مجموعة أخرى منها في إحدى زاوياها.

- أدخل!

أغلق الباب خلفي، وأخذت أتحسس المكان مستمتعاً بيدي الطليقتين مثل طفل انتشى برؤية لعبة جديدة لأول مرة، بفكر شارد وعيون ساهية تسرح في فضاءٍ صغير. مرّ الوقت طويلاً ثقيلاً مملاً، إذ كان عليّ أن أنتظر فقط، وماذا أنتظر؟ انتظار اللا شيء لعبة عبثية قاسية مثل اتباع حبل سائب بلا نهاية. توقفت عن التفكير في أي شيء سوى من سؤال يتردد

في رأسي ظل يرتطم بجدران جمجمتي فيتردد صداه بلا توقف. لماذا لا يتحدثون معي ولا يتهموني بشيء؟ أذرع الغرفة في الاتجاهات كلها، أحدق طويلاً في الأرض والسقف، وأجول بنظري على الجدران أتفحص أيّ شيء فيها حتى مسارب النمل. أشم رائحة الموت في أسماء محفورة على الجدران، وأبيات شعر تنم عن أفكار من سطرها، وتشي بالحزن الذي غمرهم، والتهمة التي لحقت بمن سكن المكان قبلي. كلمات تنم عن تحدٍ لمستقبل مجهول تشاءموا من ملاقاته فلم يجدوا بداً من مواجهته بشجاعة بدلاً من الهزيمة والانكسار. لربما كان هناك آخرون قد أُحبطوا وانكسروا فعجزوا أن يتركوا أثراً. وهذا هو حال الدنيا، إنما يخلد الشجعان فقط فيها، أما المهزومون فلن يتبقى منهم شيء، بل يصيرون عدماً لأنهم أجسادٌ يملؤها الخواء.

مرّت عشرة أيام بالتمام والكمال من غير أن أعرف لماذا اعتقلت، ولماذا لم يجرِ أي تحقيق معي. كنت هادئاً، ولكن أي هدوء؟ هدوء قريب من الخمود والسكون يكنّ في داخله ألماً غير محدود، خلق عندي ألواناً من القلق. كنت آمل ألا يكون ألماً حقيقياً أنما كان رجاءً زائفاً، فقد كنت في الواقع غاطساً في بحر من سكينة كئيبة، وهدوء خانق، وصمت مزيف مميت يسبق انفجار العاصفة. هدوء كأنه برزخ بين عالمين متناقضين، لكل منهما سننه التي يتحرك بها. بدأت

أتخلى عن الشك واستعد لمرحلة جديدة كمن يحزم حقائبه لسفر بعيد، وفي الليلة الحادية عشرة استيقظت فزعاً من نومي، وقد لبسني الهلع بعد أن رأيت شقيقتي في عالم الرؤيا تلوح لي وهي تبكي بحرقة مهيضة الجناح مكسورة الخاطر، لأنه قد حكم عليّ بالسجن المؤبد. داهمني شعور غريب، بأن ما رأيته ليس أضغاث أحلام، بل كان نبأً صادقاً يمهد لما سوف يحلّ بي قريباً. ركبني انفعال مرٌّ من الخيبة وتقوضت أحلامي باستعادة الحرية بُعَيد هذا الكابوس. بتُّ غير متأكد من أيّ شيءٍ في الوجود، إلّا من الشر المحيق بي.

ما أن طلع النهار وإذا بي أقاد إلى مركبةٍ حديثةٍ ذات دفعٍ رباعي مكبلاً إلى الخلف بعد أن عُصبَتْ عيناي كالعادة. طُلبَ مني أن أطأطئ رأسي وأضعه بين ركبتي. أصوات زجر فاحش وتعنيف بكلمات بذيئة مستدامة على لسان من كان يقتادني أفشت بأني لست وحيداً هذه المرة، بل هناك من يقاسمني المخاض الصعب. أخذ المسير هذه المرة شوطاً طويلاً، كأنه تأهب لمواجهة الرعب. اجتازت السيارة بوابة كبيرة عالية اكتمل بناؤها حديثاً في شمال العاصمة العريقة التي طالما تغنى بها الشعراء وامتدحوا سحرها، إلّا إنهم غفلوا عن هذا العالم السفلي الذي يخوض في بحر ظلماته المعذبون بسلاسل الرق.

4

من سن مبكرة وقبل البلوغ بسنوات انخرطت في العمل السياسي المنظم، وشرعت في ركوب هذا البحر اللجي متحدياً هيجان أمواجه غير عابئ بها. لم يكن قراراً عشوائياً أو لحظة عابرة استسلمت لها في طيش شباب أو نزوة مراهق، بل كانت محصلة طبيعية لطريقة تفكيري. لم أرض بالتفاوت الطبقي وتصنيف الناس إلى مجتمعات متخلفة ومتحضرة، ليس بعد الانضمام لحركة سياسية، بل حتى يوم كنت تلميذاً في الابتدائية. أبديت تساؤلاً لمعلم الدين عن سبب وجود الفقراء إذا كان كل شيء بعلم وتدبير الله. أجابني المعلم قائلاً: إن الله قد جعلنا كذلك كي تسير الحياة، ولابد من وجود فقراء كي يخدموا الأغنياء، وإلا فمن سيحمل لنا بضاعتنا حينما نتسوق إذا لم يكن هناك من حمال فقير، ومن سوف يقوم بأعمال التنظيف، وصبغ أحذيتنا، ونزح المياه الثقيلة من البالوعات (وقتها لم تكن هناك مجارٍ لتصريف المياه) إذا لم يكن هناك من فقراء؟ لم أتقبل تفسيره، وقلت له ولماذا لا نفعل ذلك بدلاً عنهم؟ بل تجرأت بالرد عليه قائلاً: إذا كان هذا من الله فعلاً، فهذا ظلم لا أقبل به. لم يوبخني على سؤالي الجسور، بل تغافلني وحسبني صبياً أخرق لا يعي ما يقول.

خصومتي مع الاستبداد والظلم بدأت مبكراً، ولكن عداوتي الأكبر كانت مع السكوت عنه، فلم أستسغ الخوف من الطغيان سبباً له. في كل صباح يقف تلاميذ المدرسة الابتدائية في ساحتها ليتحقق المعلمون من نظافة مظهرهم وللاستماع إلى توجيه تربوي من مدير المدرسة. في بداية صعود حزب البعث للسلطة كانت تجري بعض المجاملات الديمقراطية الفارغة من كل محتوى، وفي إحدى المرات تظاهر بها مدير المدرسة، الذي عرف بعدها بأنه رفيق حزبي بارع في الوشاية، وتحرير تقارير للمنظمة الحزبية عن أشخاص يشتبه بعدائهم للسلطة. سألنا هذا المدير: هل لديكم اعتراض على أسلوب التعليم؟ تقدمت إلى الأمام رافعاً يدي أطلب الحديث: نعم، وشكوت بجرأة وغير هياب لعاقبة ما أفعله أحد المعلمين لما كنت قد عرفت عنه من سلوك غير أخلاقي مع بعض التلاميذ. أخفى كثير من زملائي وجوههم خشية العقاب المنتظر. في الحقيقة لم أكن أقدر العواقب جيداً، وهذا من طباعي الرديئة. لذا لم يكن وصف أفعالي بالشجاعة في كثير من المرات مناسباً، بل التهور كان أقرب لها، على الرغم من مظهرها البطولي بما تحمل من جسارة غير معتادة. صحيح أن المظاهر خداعة، ولا تعكس جوهرها الحقيقي، لكنها رغم ذلك مفيدة بتأدية المطلوب في مواقف ليست قليلة حينما تكون الحاجة فيها لفعل جريء ليس غير.

سقت هذا الحديث لأقول إني كنت أستسهل الاعتراض على أي إساءة ومن أي شخص، مع أنه من الإنصاف أن أعترف بأني لم أكن محقاً في كثير من المرات، لكن الرفض لما أظنه خطأً كان عنصراً مبدئياً في شخصيتي.

اندفعت في العمل السياسي المنظم، ولم يورطني أحد بالانضمام إليه كما يقال عن أي ناشط حينما يبدأ طور المعاناة مع السلطان. أنا من تعقبت الانضمام للتنظيم بكامل إرادتي، كنت أتحسس مختلف السبل لبلوغ بواباته. شعرت بالعوز له كي أصب طاقتي الكامنة فيه، وأحقق أماني العظيمة في تأمين العدالة التي لم تبلغ ضفاف الأمان بعد. كنت أحلم كثيراً، وأتخيل لحظات الانتصار، رغم أني لم أكن أراها قريبة من الواقع في الوقت نفسه. جديتي ومواظبتي على التواصل عكسها التزام تام بمواعيد الاجتماعات الحزبية وتبني الأفكار الأيديولوجية والسياسية. بتّ لفرط حماستي أبالغ في تأويل الأحداث الحاضرة والوقائع التاريخية على وفق منظور أيديولوجي. وهكذا أصبحت معارضاً صريحاً من وقت مبكر، وأمسيت أينما أجلس أحذر من طوفان طغيان قادم لا عاصم منه سوى معارضته باللجوء لسفينة الاحتجاج الشعبي. حاولت جاهداً أن أكشف الغطاء عن خطره الداهم في أي فرصة تسنح أمامي، سواء في المدرسة والجامعة أو مع من أتعرف إليه، وإن كان شخصاً عابراً فقد انخرطت يوماً في

نقاشٍ طويل مع مهندس دنماركي جمعتني به رحلة من بغداد إلى الموصل. أضحيت أحدثه بلا تحرز عن الحرب العبثية التي ابتلعت زملاء أنهوا دراستهم الجامعية للتو، ولم أفكر للحظة بماذا كان ينفع الحديث معه أو أنها ثرثرة بدون جدوى. إلا إن انفعالاته التي بدا لي أن بعضها مبالغ فيه، زادتني إصراراً على مواصلة التنبيه من كارثة مد الطغيان القادم لا محالة، وباتت هاجساً رئيساً في حواراتي حتى الشخصية منها.

قبيل اعتقالي بفترة قصيرة عانيت من انقطاع علاقتي بالتنظيم بسبب اعتقال مسؤولي المباشر، والذي أعدم بالإذابة في حوض حامض النتريك (ماء النار أو التيزاب) كما علمت من مقربين له لاحقاً؛ لذا فاتحت رفيقاً وهو زميل لي أيضاً لحل هذا الإشكال. اقترح عليّ أن أكتب رسالة للتنظيم كي أُعاود الارتباط ثانية؛ فاستضافني في بيت عائلته لليلة واحدة كتبت فيها رسالة شارحاً ملابسات وضعي التنظيمي، ثم رجعت إلى بغداد بانتظار الرد. حينما كانت العربة تتحرك إلى خارج بغداد أول ما خطر في بالي هذه الرسالة التي بدا لي حينها أن أمرها قد كشف، وأن رفيقي حتماً قد وقع في قبضة الأمن. توقعت أنهم قد تعرفوا عليّ من خلال خطي لأني وقعت الرسالة باسمي الحركي.

شغفي بالعمل السياسي كان هياماً بفكرٍ يحمل صرخة

ضمير الإنسانية المعذب لحل مشاكل العالم بإعادة الإنسانية الى فطرتها التي جبلت عليها، وجل اهتماماتي فيه تركز على رفض سياسة القمع وتكميم الأفواه وحساب الأنفاس التي اتبعتها السلطة بأساليب الأنظمة الفاشية. لسوء الحظ لم ولن يخل أيّ توجه إصلاحي يرفع لواء الإنسانية من أنفار انتهازيين طلاب سلطة، أو من الضعفاء وقليلي الإدراك والوعي بقيمة ما يحملونه وينسبون إليه. وجود هؤلاء بالتأكيد شوه جمال الأفكار عبر التاريخ، وأحبط نيات الثوار وصادر أحلامهم بصنع عالمٍ حرٍ تتساوى فيه الفرص أمام جميع أفراده. أحلامٌ يناضل لأجلها الثوار ويقدمون في سبيلها التضحيات بلا تردد، ويسترخصون دماءهم لها ويجعلون من رقابهم جسوراً تعبر الإنسانية عليها إلى شاطئ أكثر أمناً ورفاهاً.

كان غياب الحرية يؤرقني، وهو خلف كل مواقفي تجاه الأحداث، والجهات، والذوات، والأفكار. أريد أن أعيش إنساناً حراً، وأرفض بقوة ما ومَن يمنعني من ذلك. كنت مؤمناً لحد بعيد ولم أزل بخلاصة غوركي التي اتخذتها منهجاً لحياتي: ان الله هو كل ما هو طيب في وجدان البشر، وان الشيطان هو كل ما هو شرير في وجدانهم. منهج كان سبباً مزمناً لانخراطي في النشاطات السياسية، وهو الذي أودى بي لخوض هذه التجربة المريرة، إلا أنه رغم فداحة الآلام، فإني

لم أسف يوماً، وما شعرت بالندم على انخراطي حد الهوس بالاحتجاج ضد الظلم والظالمين، لأني لم أجد سبيلاً غيره أعبر عن ذاتي وإنسانيتي.

5

بعد أن تجاوزت العربة بوابة بغداد الكبيرة سُمح لنا برفع رؤوسنا؛ فأزيحت كاتمات النور عن البواصر. نظرات متبادلة تدور في دهشة وحيرة معاً، إذ لم يكن هذا هو اللقاء الأول بين هؤلاء المكبلين بالقيود والمحشورين في هذه العربة الآن، بل سُبِقَ بعدة لقاءات. لقاءات سادها جو التمرد على الأوضاع السائدة، إلا أني لم أكن مرتبطاً تنظيمياً بأي من ركاب هذه العربة. انطلقت أسئلة كثيرة في سرّي مثل حمم بركان هائج. ما الذي يجري؟ كيف تمكنوا من جمع كل هؤلاء بدون أن يتنبه أحد لمخططهم، ولهذا الفخ الجماعي؟ كنّا نتوقع الاعتقال في يومٍ ما، وأعددنا خطة سهلة تحسباً لليوم الموعود، فإذا ما تعرض أحدنا للاعتقال، عليه تحمل الاستجواب والتعذيب لثلاثة أيام بلياليها، ريثما يجد رفاقه ملاذاً آمناً للاختباء. أما الآن فيبدو أن هذه المجموعة إما أنها لم تتفق على خطة مماثلة أو أنها غير مرتبطة تنظيمياً. ولكن لماذا يعتقلون معي، وهم بعيدون بعد الثريا عن الثرى عن الرسالة التي كتبتها، بل عن التنظيم الذي أنشط فيه؟ ظل السؤال حائراً يتنقل عبر نظرات مشتتة أختلسها من وجوه لأجساد جامدة تحدق في الفراغ بعيون ملأها السأم من تزاحم الهواجس والأفكار وقد ارتسمت عليها الحيرة طيلة الرحلة.

استغرقت أنا الآخر في تحليلات كثيرة لم أستطع الركون لأي واحدة منها، بل أفضت بيّ إلى أن أكون لا أدرياً بالمعنى الحرفي للكلمة. أمطر الاضطراب عليّ بكامل قوته سهام الحيرة، ولم يوقف تشتت الأفكار ولحاقها العبثي بسراب الإجابة، إلا استراحة قصيرة عند مطعم شعبي يقع على قارعة طريقٍ عامٍ في سامراء مدينة الملوية الشهيرة. كانت وقفة لتناول وجبة غداء أتى بها نادلٌ شاب، ارتسمت على وجهه الدهشة وجمدت عروق وجهه في وجلٍ وانبهارٍ، وهو يرى ملاعق تمسكها أكف مقيدة من خلف الظهور ترفع الرز المخلوط بالفاصوليا العراقية (يابسة)، ثم تنحني إليها أفواهٌ تزدرد ما فيها في مشهدٍ من كوميديا سوداء.

حين بلوغنا سامراء أيقنت أن أمر الرسالة لم يكشف؛ لأني أدركت أننا باتجاه الموصل وليست المدينة التي يسكنها صديقي، فشعرت باطمئنان نسبي. غير أن اطمئناني أنتج سؤالاً أكثر أبهاماً وغموضاً، إذن هذه وشاية، ولكن ممَنْ؟ ظل التساؤل قائماً إلى أن بلغنا الموصل في وقت امتد طرف الليل فيه، وغطى أحياء المدينة التي طالما تجولنا في شوارعها العريضة وأزقتها الصغيرة، وارتدنا مقاهيها وسُحْنا في مسارحها وملاهيها وغصنا في أغوار مكتباتها بصخب الشباب وحيوية الثوار. حينما اقتربنا من مشارف الموصل كان دجى الليل قد نزل بكامل ثقله على الشوارع. وضاعف ظلمة

المساء حلكة وزادها اسودادا عودة الخرق من جديد، لتغطي العيون الهائمة والنظرات التائهة التي تواصل إبحارها في يم الحيرة بحثاً عن تفسيرٍ لما يجري.

ارتقينا سلالم كثيرة في مديرية أمن نينوى بحضٍ وتعنيفٍ لم يتوقفا حتى بعد أن بلغنا فسحةً في طابق علوي تتوسط غرفاً ضيقة كما رأيتها لاحقاً. إذ حينها لم أرَ شيئاً، ولا أين كنّا بالتحديد، لأنني لم أكن أعرف أين تقع مديرية الأمن أصلاً. باعدوا المسافات بيننا قليلاً، إذ كنّا قبل قليل كما الأطفال في لعبة "هذا القطار السريع" يمسك بعضهم بعضاً ويسيرون في حلقة مفرغة، اليوم نهرول على سكة الوهم ندور في دائرة لا حد لها إلا السقوط أو نهوي صرعى، يمسك أحدنا بثياب الآخر نتشبث ببعض، نستند في مقاومة الظلام على آصرة اجتماعنا. صيحات تختلط بصفعات تحثنا الخطى على سلم طويل في بناء متعدد الطبقات. نواصل الارتقاء في ليل يغلف الكون بعتمته الحالكة كأنها مستهل رحلة قريبة إلى السماء تعانق أرواحنا بها النجوم وتجاور الأنوار السرمدية، إلا إنه في الواقع كانت أجسادنا تصعد إلى ساحة نُصبَ فيها عرشٌ لآلهة الغضب. أمرنا زبانيتها بالبقاء وقوفاً ساكنين بلا حركة، مع أنه لم يكن لنا أن نصطفي هيئة غيرها سوى التي يريدون، ليس في تلك اللحظة وحسب، بل في كل لحظة استسلمنا فيها لحكم أبناء الآلهة، وآمنا بأن الآلهة ينبغي أن تطاع ولو أمرتنا

بخلاف العقل والفطرة. مشيئة جائرة لا يحكمها قانون ولا يسيرها نظام، بل أنها تتغير بحسب تغير مزاج شرطي يعاني مللاً من علاقة عاطفية، أو من إحباطٍ في صيد فتاة أو من أزمة في عمله لا يعرف حيلة لتجاوزها.

وقفنا بصمت في الردهة لوقتٍ قصيرٍ جداً، ثم فجأة انفلتت علينا عصابة كأنها كلاب سوقية جوعى أفلتت من سلاسل أصحابها فراحت تقضم أجساد فرائسها. تحولت أجسادنا في طرفة عين إلى كيس ملاكمة يتلقى مهارات عناصر مدربة جيداً على فنون القتال. لم يكن بإمكان أحد منّا توقع الضربات الوافدة إليه، ولا رؤيتها. عدمت كل وسيلة للدفاع سوى تكوير جسدي عسى أن تشطح ضرباتهم، إلّا إن هذا لم يكن سوى وهم جديد يضاف إلى تل التخاريف الذي تكوم فوق رأسي. أتمايل أمام زخم الضربات وقوتها التي تتابع نموها المضاعف. لم تكن ضربات، بل طعنات. أضحت الأرض تدور بي. صارت هشة إلى حد لم يعد بالإمكان الوقوف عليها. تحول ترنحي إلى نوبات سقوط، لا يفصل بينها، سوى صيحات عالية، وشهقات تريد ان تبتلع المباغتة. كنت أجرب النهوض ببطء عسى أن أشغلهم قليلاً لأحظى بثوانٍ قليلة من الراحة. تحول تمثيل البطء إلى واقع، ثم هويت أخيراً بعد أن عدمت أيّة قابلية على القيام مجدداً.

سقطت على بلاطٍ باردٍ لتبدأ بتقليبي عليه أحذية جلدية

صـلبة ذات رؤوس مدببـة. لا أظـن أن أيّـاً مـن أصـحابي كـان وضعه أفضل مما كنت عليه، ولكن لم يكن لي شغل بهم ولا تذكرت وجودهم، إلّا حين كانت تندّ منهم صرخات الفزع وصيحات الألم فيزيدني وجودهم هلعاً. تملكتني نزعة عبثية، ليت العالم يخلو من البشر كلهم؛ فارتاح منهم، ومن أفعالهم ونظراتهم. لكن من ينظر إليّ الآن، فالكل في شغلٍ عن غيره؟ كل واحد منّا كان يصارع بمفرده وحوشاً كاسرة أفلتها مالكها من لجامها على حين غرة، فراحت تخمد سعير جوعها بنهش لحومنا. لم يكن هناك من شيء يمكن التقاطه للتشبث به. أصبح رأسي خاوياً كأنه قطعةٌ مستعارة من الفضاء الخارجي انعدم كل وسيط فيه ولا يمكن له أن يُرْجِع حتى الصدى. تلبسني كاملاً وهم بأن الكون قد خلا من كل شيء حتى من صانعه، وأصبح فارغاً مقفراً خاوياً، لم يتبق فيه من أحد سواي أنا وهؤلاء الوحوش القتلة، ولا أحد غيرنا.

انطبق هيكلي على البلاط، ولم أعد أملك من خيارٍ سوى التقلب عليه تحاشياً من ركلات متلاحقة كأنها سيل مجنون يندفع في وادي. تقوض بنياني تماماً ولم تعد فيّ من قوة للتحمل بالمطلق. شلت يديَّ لا من أثر الركل والصفع، بل من أسنان القيد الذي انزلقت سلسلته إلى أقصى حدٍ أثناء المعركة التي خضتها بلا مقاومة، فاستحكم التصاقها بالرسغين وصار ذراعاي كأنهما جزء من ظهري. غربة مطلقة

وغموض تام وعجز عن التفكير في سبب هذا العذاب. كان عذاب المعركة نفسياً أكثر مما هو في الجسد، ليس لأني كنت أتلقى الضرب وحدي، بل لأني بعد كل هذه الآلام والتعذيب لم أعرف سبباً لكل هذا ولو كان عنوان الاتهام فقط. كنت مثل ظامئ يبحث عن الماء في السراب، يجري في الاتجاهات كلها. يطرق أبوابها عسى أن يبلغ مرامه، فلا ينال شيئاً من مراده إلا في تخيلات يصنعها عجزه، تختلط في رأسه صور المنام واليقظة فلا ينال راحة في ليلٍ ولا في نهار.

أصبحت مثل أي رخامة بلطت بها الأرض، إلا أن الحفلة السادية لم تتوقف، بل راحت أجسادٌ تنط فوقي. بعضها كان ثقيلاً أجبرني على الأنين بصوت عال، وبعض كان يسير برشاقة وخفة مثل راقص بالية كأن صوت آهاتي ورجع أنيني موسيقى تطربه. كانوا يقفزون فوق أيّ موطأ تجده أقدامهم، لا يميزون بين وجه لي أو قفا، ويطلقون قهقهة عميقة جذلى، كأنهم أطفال وجدوا متعتهم في الوثوب على مقفز.

ساعات طويلة والأحذية ذوات الرؤوس المدببة لا تكف عن لثم جسدي، لم تترك بوصة منه، فقد كانت تقبل عليه كأنها نفوس مترعة بشبق هائج ووجدت الفرصة مواتية للاغتصاب؛ فاندفعت تركله بعنف، وتقلبه في أنحاء القاعة الصغيرة. جريمة اغتصاب من مخلوق موغل في القوة يمتلك سطوة كاملة، وسلطة مطلقة أزاح بها الآلهة عن عروشها،

ونادى بأعلى صوته أنه الرب الأعلى الذي لا منازع له. يرتكبون ما يشاؤون من الأفعال، لأنهم يمتلكون حقاً خاصاً منحتهم إياه قوتهم؛ فأذن لضمائرهم أن تتخطّى الحواجز كلها. نعم، إنهم مرضى أخفق عقلهم في لجم غرائزهم، فأباحوا لأنفسهم فعل أي شيء لإرواء ظمأ السلطة واشباع نهم القوَّة بذهنية بغيضة حسبت أن الكمال يتحقق باضطهاد الغير.

أوشكتُ على الانهيار التام وكاد أن يغمى عليَّ، لولا استراحات قصيرة بين فينة وأخرى يلتقط بها أصحاب الأحذية المدببة أنفاسهم ليشربوا الشاي ويأكلون معه كعكاً. كنت أسمع صوت جرشه تصطكه أسنانهم ويختلط بسباب وشتائم لم تتوقف، كأنها جزء من زادهم اليومي أو هي الأوكسجين الذي يستنشقون ليبقوا على قيد الحياة. هوسهم السادي لم يفتر حتى في هذه الفواصل القصيرة من الاستراحة كما كنت آمل. آمال تائهة لم أعرف طريقاً يجمعني بها، وكان حري بيّ أن أقيم لها سرادق عزاء بدلاً من انتظارها. كانت تطرق رأسي مثل صوت رعد بلا غيمة، لا أنال منها غير الصخب. أطاردها راكباً أُسرّع خيولي وحينما ألمح ظلالها أجد دماءها قد لطخت أفواه الذئاب.

لم يرق لأحدهم الاستمرار في شرب الشاي فسألني وهو يمسك القدح بيده:

- هل تريد قليلاً منه؟

لم أرد عليه لأني كنت أعلم يقيناً إنه لا يستفسر فعلاً عن أهوائي ورغباتي، بل يضمر أمراً سيئاً. لم يخب حدسي فقد سكب بهدوء مزعج ما تبقى من شاي ساخن في قدحه على فروة رأسي. لسوء الحظ كنت قد زرت الحلاق قبل حفلة العبث هذه بيومين فقط، وكان من ديدني أن أخفف شعر رأسي بإفراط. الشاي حين يقدم في بلدي لا عجب من رؤية السكر قد ملأ نصف القدح، وهو أمر لم يثر اعجابي يوماً، فكيف به الآن وهو يمطر على رأسي دبقاً. سخونة الشاي سوف تتلاشى بعد قليل، لكن ماذا سوف افعل بكمية السكر الكبيرة التي تغلغلت في فروة رأسي. بقيت أستشعر اللزوجة لردح طويل جداً، ثم أمسى ظاهر جمجمتي موئلاً مثالياً للهوام والحشرات التي يزخر بها المعتقل، فالاستحمام غدا من المستحيلات التي لا تعرف بلوغ الواقع ولو حضر أصحاب أعاجيب الكتاب المقدس كلها.

بعد ترقب طويل، وكم كان مقرفاً، لأني كنت أنتظر مجهولاً إن أتى لن يحل مشكلة، بل سوف يفاقمها ويزيدها تعقيداً وسوءاً، ومع ذلك كنت أوهم نفسي أنه من المحتم عليّ انتظاره، لأن قدومه سيضع خاتمة لهذا الازدراء الذي غمرت به وغطست فيه عميقاً نحو قاع بلا قرار. وهمٌ مثيل انتظار من لا يأتي أبداً رغم تخاريف المتوقعين لقدومه. انتظار

يبتدع صورته العجز حين يتملك صاحبه، يقرف منه فيستذكى على نفسه بشحن فكره بمراكب خيالية وإبداعات أسطورية؛ ليبحر بها بعيداً بلا شراع يعينه في ظلمات البحر، وبلا دليل يقتفي خطاه. يظل مصدقاً واثقاً أنه يقبض على حبل عقد طرفه الآخر عند بر النجاة وشاطئ الأمان، ولا يدري أنه طرف حبل سائب ينتهي به إلى عرض يم لا متناهي الأطراف من العجز والشلل، وإلى مزيد من الانغماس في الأوهام. منافذ الخلاص لن تفتح وحدها ولن تسير إلى أيّ أحد، من يريد بلوغها عليه أن يسعى إليها ويقرعها ويفتحها عنوة إن أبت، وبالتأكيد لن يصل إليها عاجزٌ مشلول، بل يبلغها الساعون إليها ويطرق بابها السائرون نحوها، وهم فقط من يفتحها.

6

وصل الملازم أول "عبد العظيم ناصر حسين"، وبدأ يدعونا إلى غرفته كلاً على انفراد. كان كتلة لحم طائلة تشوبها حمرة مختلطة ببياض، ترشح عنفاً، وتقطر قوة، وتفيض قسوة. سألني بضعة أسئلة تقليدية اسمك، عمرك، تحصيلك الدراسي ومن أيّ محافظة أنت وأسئلة أخرى لا قيمة لها، ثم سألني سؤالاً يستدعي الضحك والخوف معاً.

- هل آذاك أحد؟

لم اعرف بماذا أجيب عن هذا السؤال، هل يجهل الجواب فعلاً، وحالي المبعثر بعد المعركة الخاسرة قد خطت آثارها على كل شيء فيّ وعليّ، أم إنه يبالغ في السخرية؟ هل هو يستفزني لخوض نزال جديد، أم إنه مجرد سؤال عبثي درج على لسانه؟ أيّاً كان جواب هذه الأسئلة فقد كان من مقتضى الحذر تجاهلها، لأن الإجابة عنها من الممكن أن تحول المسار إلى سكة جديدة لا تحمد خواتيمها، وأيّ عقبى تؤمل بعد هذا الاستقبال الساخن أكثر من لظى آب؟ لم يعلق على وجومي وإطراقي إلى الأرض، بل أمرني هادراً بالانصراف بلهجة وعيد ببطش وتهديد تضمره لهجته العالية، بأنني سألقى شيئاً أزرى مما لقيته حتى الآن.

- اذهب ارتاح اليوم، وغداً سنبدأ معك الكلام.

لم افهم أيّ شيء مما حصل رغم النشوة التي غزتني وأنا أسمع أمر الانصراف، ولا أشك أنها ارتسمت على محياي المبعثر. في طريق الانصراف كنت ألحّ على نفسي بسؤال ساذج حسبته حينها جوهرياً، أين هو الاتهام الموجه لي؟ ولماذا كان تسونامي الرفس واللكم والهراوات؟ هل حقاً ستكون التهمة الموجهة لي كما كنّا نقول دائماً: أن النزوة المجنونة في أن تكون إنساناً هي أكبر الجرائم وأخطر التهم في جمهوريات الخوف؟ إنهم لا يبحثون عن شيء، بل يريدون وأد الفطرة الإنسانية التي إن طلت على صخب هذا العالم ونما برعمها قليلاً، سوف تستفز تجبّرهم وتوقظ استكبارهم الخاوي من غفلته. تطلعات الإنسان الفطرية بأن يكون حراً ترجف الطغاة وعبيدهم فيستشيط جنون غضبهم، ويطفقون يغرفون من ظلمة بئر الموت منتهى القسوة لمحوها، وهيهات لهم ذلك، وإن علا صراخهم وأرعد عواؤهم الأرض والسماء فمهما أصاب العث الشجر وأفسد الثمر فانه لن يجعل من حصاده الرديء زاداً. القوت الذي تقوم به الحياة لا يؤخذ إلّا من السليم، ومهما كان قليلاً فإن قافلة الوجود تواصل سيرها السرمدي به وحده، وسيذهب إلى المزابل الثمر الفاسد جميعه مهما كثر وطغى.

عبر سلالم كثيرة تم إنزالي إلى زنزانة انفرادية في قبو

مظلم بلا شبابيك. وزيادة في سوء الحظ أنها كانت تقع تحت السلم؛ مما جعلها منخفضة أكثر من غيرها. عرضها أقل من ثلاثة أرباع المتر وطولها يكاد يضاهي طولي ذا الأقدام الستّ. حينما كنت اضطجع على أرضيتها الاسمنتية تصل أطراف أصابعي إلى بابها بينما رأسي يحتك بالجدار، أما ارتفاعها فلم يكن يجدي المرور من تحته إلا حاني الرأس كمن يسير في منتهى الخشوع والتبجيل، كأنه صمم لركوع قسري لآلهة الغضب.

باتت زنزانتي نزل الحرية الوحيد في هذا العالم المستعبد من أباطرة القوة والجشع، إذ كنت أختلي فيها بعيداً عنهم، وأعتكف معيداً ترتيب أفكاري. كان فضاؤها مملوءاً حد التخمة المسرفة بالعتمة، عيوني تتنقل فيها فتأخذ من خيوطها شعاعاً أبصر به ليلاً بات كسوتي وردائي. ليل وردني لا قمر يصحبه ولا نجوم، ولم يعد ينجلي ويهبط كما هو دأبه، بل صار مكتنفاً معي يأبى مبارحة المكان. بابها الحديدي السميك يقيده أكثر من مزلاج وتُغْلقه أقفال ثقيلة من الخارج، وفي جزئه العلوي توجد كوة صغيرة مؤصدة بشكل أزلي، إلّا حين يدلف منها صحن عميق أو بالأصح طشت بلاستيكي صغير مخصصٌ للأكل رسمياً، سوف أكتشف له استغلال لم يكن ليخطر في خلدي بالمرة، ولا يمكن لأحد توقعه أبداً لأنها مفاجأة عجيبة في زمن الثورة الجميل، كما يسميه فاقدو

الذاكرة أتباع مرضى القلوب ومروّجي الجريمة.

صرير لا يفتر يمزق هجوع الظلام، وبسذاجة بالغة فتشت كثيراً عن صاحب هذا الصوت المزعج بالغ الثرثرة، أتحسس في الظلام زوايا محبسي لعلي أحظى بساعة نوم بعد هذه الرحلة الشاقة الطويلة والاستقبال العنيف الذي لقيته. في النهاية لم أجد شيئاً سوى خبث الجلاد، وإنني أبله كبير؛ إذ لم يكن هناك أصلاً من صرصار. صوت لم أعرف من أين يطلق ولا كيف، كل ما خمنته، وكان حدسي صحيحاً هذه المرة، بأنه مُوكلٌ رسمياً بأن يقض مضجعي ويسلب راحتي. إيهٍ، إني لأبله حقاً إلى حد الضحك! كيف أتحدث عن شيء اسمه الراحة في هذا الثقب الأسود؟ لو قلت كُلف بأن يجعلني في توترٍ لا يسكن لأنصفته، لأنه قد فعل ذلك في غاية الإجادة. التقيت بعد زمن أشخاصاً صادفوا طرائق جعلتهم يقظين دائماً مفتوحي الأعين، لا تجرؤ أجفانهم أن تُسدل على بواصرهم ولو لهنيهة واحدة. كانوا يُدخلون معهم عقرباً صغيراً، ويهددونه بالويل والثبور وأنه سيرى نجوم الظهيرة إذا مسه بأذى أو حاول قتله؛ لذا كان يسخّر اهتمامه كله لتجنب الاحتكاك به، ويظل يدور حوله مثل ثور في ساقية طوال الوقت، إلى أن يكتشف فيما بعد حين لا تعود قيمة لاكتشافه أنه عقربٌ لا يلدغ، وإن فعل فإن لدغته غير ضارة فهو مخصص لإرهاق المعتقلين وتدمير أعصابهم. اكتشافي

المتأخر كان غير ذي نفع أيضاً، بل كان مضراً، لأنه لم يقلل من توتري، بل أعطاه زخماً أشد ودفعاً أقوى، لأني صرت أراهم بعين اليقين يتلاعبون بي، وإن كل الأشياء مسخرة لهم كأنهم سليمان تجثو الشياطين عند قدميه وتسرق له عروش الممالك في طرفة عين، وتتملق له للفتك بأعدائه. صرت أرى ملكهم عظيماً كبيراً كأنه بحر ظلمات، وما أنا فيه غير ورقة ذابلة أصابها البلل. افترشت الأرض الإسمنتية بعد أن أضناني التعب كلياً، أتدثر الظلام وأتوسد حذاءً رياضياً كنت انتعله. عجز جفناي عن الإغماض قلقاً، وحينما كانا يسهوان عن القلق لوهلة قصيرة أنزلق بالحال في غفوة قصيرة، سرعان ما يذبحها طنين الصرصور فيوقظها تدارك الغفلة عن القلق.

اقتحم الزنزانةَ شعاع ضوء من فتحة الباب العلوية وهي تنفرج لأول مرة ليلج منها صحن يحتوي حساء عدس. دقائق قليلة بعيدها فُتحَ الباب وهذه المرة سبقت فتحه أصوات قرع رهيب لسلسلة مفاتيح ضخمة. انتصب أمامي رجل أمن (أبو أحمد) بزي عسكري وسُمرة لافحة من صنع شمس صحراوية خلّفت على ثنايا وجهه، قسوةً، وغلظةً وجفاءً. أمرني بتعنيف وبكلمات فاحشة بالخروج لقضاء حاجتي وغسل طشت الطعام، حتى تلك اللحظة لم أكن قد توصلت إلى إدراك المدى الذي بلغته القسوة، ولهذا واصلت بلادتي وسرت كعادة البشر بالمشي، إلّا إن هراوة متصلبة في أكف

وحشية زمجرت بغضب، فهوت عليّ بقسوة وهي ترعد. بهتُّ حينها مثل تلميذ خامل تصعقه عصا معلمه. صرخة الوجع لم تكن منها، بل منبعها الأصيل كان الذعر من المباغتة. قساوة المفاجأة كانت أكثر بكثير من أي ألم، ولقنتني درساً جديداً في كيفية السير الحثيث في معتقلات دولتنا الثورية.

عدت إلى وطني الجديد خائباً، فلا أنا الذي شطفت الطشت ولا فعلت ما كان عليّ فعله من قضاء حاجتي الحيوية، إلّا بتساؤل أحمق جديد، هل حقاً هذا الوقت الوجيز يكفي لأداء كل هذه الوظائف؟ علي أن أعترف أنني كنت في تلك اللحظة أحمق عظيم البلاهة وأنموذجاً قياسياً في الغباوة. كنت اسأل نفسي أسئلة تثير الضحك والشفقة لسخافتها وسذاجتها. كل شيء كان معداً ليذوق به المعارض السياسي الذلَّ وتحطم شخصيته، بل سحقه وإشعاره بأنه لا شيء، بل عدم. صحيح أن الحرس لم يفعل ذلك لفطنة عندهم أو لأنهم يتوفرون على مهارة في ممارسة الحرب النفسية، فقد كانوا أغبياء جداً بلا مواربة وشك، أنما الوتيرة التي رسمت لهم لأداء أدوارهم كانت تحقق ذلك. هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون، مثلاً سلسلة المفاتيح كانت تصدر أصواتاً مزعجة مهما جهد حاملها في التكتم عليها، فحينما يقترب صوتها فإنها كانت تشبه فحيح أفعى سامة تنتصب أمام ضحية تحملق فيه بعيون جامدة استعداداً لافتراسه، فيما هو

يركع أمامها ينتظر أن تبلعه في أحشائها وقد أصابته نظراتها بالشلل قبل ان تلدغه ويسري سمها في جسده.

دقيقتان ليس غير، هو الحد الأقصى لقضاء الحاجة حين يسمح بالخروج لممارستها، بينما يقف على منحنيات الطريق المؤدي إلى المرحاض حرس بعصي غليظة يضربون بها أيّ معتقل يمر. زعيقهم يتواصل عليه سواء ركض في الممر أو صعد على الدرج القصير المؤدي إلى كنيف ضيق منزوع الباب. حينما يبلغ المرحاض لا يتوقف زخ الزعيق والسباب من الهطول، مما جعلني في توترٍ دائمٍ وإحساسٍ كاملٍ بالضياع، أضحيت مثل تائه يدور ويدور ليسقط دائخاً، وحينما ينهض ثانية يعاود الدوران حول عمود التلاشي وهكذا إلى حد لانهاية له، كأنه سيزيف يدفع صخرة زيوس.

كنت محل فخر بين أوساط عائلتي على أنني ذكي وسريع التعلم ألتهم الكتب التهاماً ولا أملّ من قراءة المطولات منها، ولذا فقد حظيت بالدراسة في ثانوية مميزة لا يدرس فيها إلا أبناء الذوات. تعلمت منها كيف أحفظ الدروس بسرعة وأغور في أعماق الفكرة لأخلق منها الجديد، ولا أتوقف أمام المسائل الصعبة فإنها لم تخلق إلا للكسالى وينبغي ألا أكون منهم. تداعت صور الكتب الكثيرة التي سبرت أغوارها، ورحت استجمع حكايات أبطالها الذين اجتازوا الصعاب فخلقوا حلولاً سحرية مما يشبه العدم. ليس هناك من يوم

لتنفعني به هذه المجلدات الثخينة أكثر من هذا اليوم، وعليّ ألا أخيب ظن أحد بيّ. هضمت درس مراجعة المرحاض إلى الثمالة؛ فانفجرت عندي البراغماتية والانتهازية بأبشع صورها لتوظيف الفرصة الزمنية الخاطفة لمنفعتي لاحقاً. اتخذت قراراً سريعاً، ولكنه كان جريئاً إلى أبعد الحدود. قرار طوى معه بذخ ورفاهية العالم الخارجي وأدخله في كون ميتافيزيقي لا يشبه الذي كنت أسكنه قبل أسبوعين بأيّ وجه. عالم ولجت فيه بغتة كموت الفجأة الذي يخطف الأرواح إلى عالم قصي لا يمت لعالم الدنيا بشيء إلّا في مسألة واحدة، وهي إن الروح قد سكنت فيهما معاً. أبحرت سريعاً في هذا العالم السريالي، ووضعت خطة محكمة بأن أقضي حاجتي إن اضطررت في صحن الأكل بعد الفراغ من تناول وجبة الطعام في المرات اللاحقة، وحينما يُطلب مني الخروج لقضاء الحاجة في تلك الدقيقتين، أقوم بغسله من فضلاتي ومن بقايا الطعام، وبهذا أهزم جلادي واستغفله وأكسر طوقه الذي يريد إحكامه عليّ. كانت خطة ناجحة بالفعل لغسل الطشت، بل فعلتها وانا أترنم بأغنية قديمة حفظتها من أيام المراهقة. شعرت بالزهو لقراري العظيم، وبفخر وإعجاب بقدرتي الخلاقة على التأقلم قلت لهم في ضميري: سأنتصر عليكم أيها الأوباش.

7

في الليل حينما تكفّ الشمس عن مطاردة الوقائع وأشخاصها، تدخل العتمة بكل ثقل دجاها لتفتح أبواباً لأحداثٍ رهيبة تجري في غرفة منزوية في الطابق الثاني من مبنى كان يدير قفاه لقاعة جميلة طالما اجتمع فيها حالمون بحياة بهية. كنت أرتاد مع أخلائي قاعة (ابن الأثير) في الساحل الأيمن من مدينة الموصل، لنحضر عروضاً مسرحية وحفلات موسيقية أو غنائية. كنّا نبحث عن الفنون الراقية، ونتعرف على فنانين ومثقفين تجمعنا وإياهم أحلام لم تتحقق، بوطن حر جميل يعيش شعبه بهناء وسعادة. لا تفرقنا انحداراتنا الاجتماعية أو الطبقية رغم تباينها. كنّا مترعين بالأمل لا نتردد في تبادل ضحكات الهزء والسخرية من أزلام السلطة، حينما كانوا يطالبون مسرحي أو موسيقي بتقديم فقرات فنية تعظم الدكتاتور أو تتغنى بالمحرقة، التي نصبها لمئات الألوف من الشباب. أفكار عظمى وتطلعات رحبة وآمال كبرى ضج بها رأسي وأنا أدخل هذه القاعة، إلا أنه لم يدر بخلدي أبداً أني سأقابلها في بناية تطفح بالبؤس والشقاء وتجيش بكل هذا العبث المجنون.

لم يتسن لي معاينة ملامح هذه الصومعة الرهيبة أبداً، إذ لم أدخلها إلا وعيناي قد عميت بعازل حاجب للرؤية، لكنّي

مسست كل شبر فيها بآلامي وصرخاتي، وبدمائي التي صادفت جدرانها تروي لها مشاعر متلاطمة توزعت بين ألمٍ من عذابات تجرعتها، ومن إشفاق على جلاد كان يعتريه الإرهاق من إيقاع العقوبة بيّ لجريمة ارتكبتها بإدمان وزخم ثابت، بل متصاعد. جرم شبق الحرية والإصرار على بلوغ قيم الإنسانية العليا إن لم يكن بالإمكان بلوغه في العالم الذي أقطن فيه، فعلى الأقل في نفسي وهي العالم الأكبر. لم ولن أتنازل عن ذلك أبداً، وإن تنازلت يوماً عنه، فالموت سوف يكون خير من الحياة، لأني أكون قد متّ فعلاً ولا حل للتخلص من جيف الفطائس إلا بحشرها في القبور.

حينما أسدل الليل برقعه واحكم ظلمته جاءت مجموعة من الجلادين لتقتاد أحد الرفاق إلى هذه الغرفة التي سوف أمسي ضيفاً دائماً عليها. بعد عدة ساعات عادوا به ثانية، كان يتوجع ولا يكف عن الأنين وصدى ألمه يشق كثبان الظلام ويحفر أخدوداً في صخر الضمير الإنساني المعطل. انتابتني رعشة خوف غريزي من مواجهة هذا الألم، وتزايد خوفي وهلعي وأنا أنصت إلى حوار بينه وبين سجانه. طلب منه أن يرفع عن عينيه الخرقة التي تعصبهما، لأنه بات عاجزاً عن رفعها. يا للهول! ماذا فعلوا به فأضحى لا يقوى على إزاحة عصابة لا يصعب على الطفل الرضيع أن يرفعها؟ كنت أسأل لا أحد وقد اعتراني خوف هائل سرى في جسدي قشعريرة

أرجفت كل بوصة فيه. صرت مثل سعفة صغيرة وقعت في مجرى ريح مدارية. ازدحمت مخيلتي بصورٍ لم أشهدها بعد، يكسوها ثوب واحد هو القسوة المفرطة. قسوة استحكم الفشل في إيجاد أي عذر لها أو تبريرها. وإن وجد أصحاب السفسطة والجدل الفارغ ذريعة في كل مرة لهذا العنف البهيمي الذي يتمثل على أيدي من يعدّوه بشراً، وهم ينسبونه ظلماً وبهتاناً له، إذ أنه فعل لا يليق إلّا بوحوش أسطورية من صنع ساحرة شمطاء تقطن خربة مهجورة.

جاء دوري أخيراً، صعدت سلالم متعددة وطلب مني مرافقي من الحرس، أن أحصي ثلاث عشرة درجة في كل مرة حين ارتقي واحدة منها، خلته يسخر مني كما هو دأبهم. زللت في آخر درجة وهوت قدمي في الفراغ بعد أن أخطأت الحساب فوكزني بعنف في خاصرتي. دخلت على رجل به بدانة واضحة تشوه مظهره ومثلها قسوة زائدة عن الحد المتعارف بين ضباط الأمن. في يوم أبى الاعتراف أحد المعتقلين صامداً بوجه التعذيب، فقال له المحقق: لقد عجزت عن استنطاقك، ولكني سوف أحول استجوابك لمن لا يرحم وهو الذي سوف ينتزع منك الاعتراف؛ فأحاله إلى هذا الضابط (عبد العظيم). تعرفت عليه من صوته المتميز، فقد بتّ أنظر إلى العالم من أذني منذ أن دخلت هذا العالم.

بادرني بسؤال قصير وبلا مقدمات.

- من مسؤولك في التنظيم؟

- مستقل. بلا تردد وبحسم سريع رددت له الجواب.

وقبل أن تصل كلماتي إلى إذنه الصماء عن سماع هذه الأجوبة، ارتطمت قبضة كأنها من الفولاذ بمعدتي. عنفها الشمشوني جرّني إلى الأرض فهويت سريعاً مثل حجر يصدم الأرض نازلاً من برجٍ عالٍ بسقوطٍ حر. تكومتُ مثل كيس رمل بهيئة إنسان، رفعني في الحال ذراعان أمسكا بي من الجانبين.

ثم صاح بهم آمراً بغضبٍ.

- أخذوه!

أصعدوني سُلمّاً صغيراً، وارتكب الحديد معي خطيئة جديدة، إذ لم يكفه قيد المعاصم كما فعل من قبل، بل علقني هذه المرة إلى سقف الغرفة. تشبثت بجامعة القيد التي حبست ذراعيَّ من الخلف، واتكأت بقدمي على الفضاء. جسدي يتدلى متأرجحاً تنال منه فنون التعذيب التي تفتقت عنها عقول لست أدري في أي خانة أصنفها.

حينما جردوني من الثياب تماماً، حلّت لحظة مواجهة مع الذات عادت بي إلى بواكير قصة الإنسانية الأولى؛ فلم يعترني الخجل كما أرادوا وقلت لنفسي مشجعاً:

- الملابس هي ورق جنة آدم المزيفة، والملتحفون بها، أنما يفعلون ذلك ليخفوا قبح سوأة الخطيئة التي تغمرهم. من

كان بريئاً لم تدنسه الخطايا فلن تعوزه وليس بحاجة لأسمال العار.

أرادوا اقتحام عفتي وحيائي وما عرفوا أنهم فجروا فيّ براءة الإنسان المنسية منذ أن فقد عذريته حينما نالت منه ثمار شجرة الخطيئة والرذيلة. هذه لبوس الفضيحة، ولن يعيبني التجرد منها، وهل يعيب المرآة أن ترتد إلى صفائها وفطرتها الأولى، وأن تزاح منها الشوائب ويجلى عنها الكدر؟ لتأخذوها كلها فلا حاجة لي بها، إنما يحتاج إلى الستر من به عيب وأنا من عيوبكم برئ. رشوا عليّ سائلاً سريع الاشتعال غمرني باللهيب مرات عديدة، وبين لهب حريق وآخر كانوا لا يجدون منفضة لجمر سجائرهم إلّا في جسدي الأسمر السابح ألماً في الفضاء. كان أحدهم يخمد سيجارته على ظهري وهو يتأسف، إنما ليس عليّ، بل عليها لأنها كانت من نوع روثمان. اختنقت بدخان سجائرهم وفحش أقوالهم وبهراوات خشبية أو حديدية كانت تترك بصماتها على أعضائي بتناوب مجنون، ثم استحال تدريجياً ثوب الألم المزمن إلى درعٍ واقٍ يصد موجات عنفهم، فكثرة الوجع سلبتني الإحساس به.

دم حار حد اللسع كان يجرى على غير ما أعتاد عليه بين أنسجة ممزقة في الكتفين المخلوعين بفعل التعليق. بدأت أستعيد قواي الكامنة في مجهول عقلي كي ألاحق سمو

الروح. الندوب والجروح بعضها سيلتئم يوماً ما، وأخرى ستبقى نياشين محفورة أبداً في جسدي لذكرى المواجهة، يفوح منها في كل حين عطر الدم الذي يصرع السيف في أي منازلة له معه ومتى ما التقيا. سرى خدر في أنحاء جسدي، قتل الألم وبدأ يعطل الحواس شيئاً فشيئاً، كلما تصاعد زمن المواجهة سائبة النهاية، لكنها في ذاك اليوم انتهت وكانت جولة أولى سوف تتبعها جولات عديدة.

قال لي أحدهم بعد حفلة السمر هذه التي تجرعتُ فيها كثيراً من ساديتهم، إنه قد أُرهق، وعليَّ أن أعترف وكفى صموداً ومقاومة لأنها بلا جدوى، صدمته بردٍ لم يتوقعه حين قلتُ له بكل بداهة وبلا أدنى تردد:

- إني لم أنوِ ولا أريد أن أسبب لك تعباً.

أشفقتُ عليه كثيراً لكنه ضحك ساخراً ولربما مستغرباً، ظل يردد مقولتي لوهلة وهو يقهقه، إنما بدا لي وهو يستعيدها أنه صدق نيتي بعمق، لكن يا للأسف بدا أيضاً أنه لم يفهمها كما كنت أتمنى له أن يفعل، لكن أنّى لمن خاض في وحل زريبة خنازير أن يشم طيب الشذى أو الأريج الزكي؟ ليس باليد من حيلة الآن لأصل إلى قلبه، لكن عليّ المحاولة، ولن أدع صدوده يوقف مسعاي، لا الآن ولا من بعد، وفي يوم ما سوف يفهم هو وأقرانه أغنيتي.

توالت حفلات التعذيب لأربعة أسابيع متواصلة، قطعتها

استراحات اضطرارية كانوا يحرصون على تمتعي بها، لمنح جسدي فرصة للتهيؤ والاستعداد لتلقي المزيد من العذاب حينما يصبح هزيلاً لا يقوى على التحمل، وبالأخص ذراعيّ اللتين كانتا تصابان بخدرٍ تام جراء التعليق إلى السقف. فما أن تهدأ قليلاً بعض جراحاتي تتكرر الحكاية من جديد، ليس لمرةٍ واحدة، بل لمرات كثيرة. في كل مرة كانوا يسقونني غضب غرائزهم من جوارحٍ هائجة تنفلت من عقالها كما هو حال الضواري المسعورة، وكنت أجرعهم بالمقابل خمرة الصمت التي تطيح برؤوسهم، فتجعلهم أكثر جنوناً يتقيؤون الشر المتجمد في صدورهم. بعد كل حفلة تعذيب أفيئ إلى زنزانتي وقد صبغ جلدي بحمرةٍ قانية إمّا من دمٍ نزفته أو من أثر السياط، متوجعاً لا تحتمل أعضائي أن يحتك أحدها بالآخر، فيما هم يعودون سكارى حيارى لا يجدون حلاً لمعضلتي ولا فكاً لأُحجيتي.

كنت أودعهم هادئاً في قرارتي رغم ألم الجراح، وهم في انكسار وخيبة يزبدون ويعربدون. صخب الصمت الذي أذيقه لهم كان يقتلع الأصابع الغبية التي يدسونها في آذانهم كي يصموها عن سماع رعد الحقيقة، ويمزق الأسمال البالية التي يدفن بها البلهاء رؤوسهم. طرق شتى حاولوها لإرغامي على البوح بأشياء لم ولن يعرفوها أبداً فضلت سراً مخبئاً أحتفظ به في صدري، الذي هو قبرُ لأسرار كثيرة استمرت عصية ليست

عليهم وحسب، بل على أقرب الناس اليَّ. ما كنت أقوم به بالفعل من مناهضة سلطة القمع البوليسية وتكميم الأفواه ومصادرة الحريات قبل دخولي للسجن ظل طي الكتمان للأبد. شخص واحد فقط كان يعرف ما أقوم به، وحين أضحت الأمور بلا أهمية بعد ذلك، لم أجد مسوغاً للبوح بها، لأني كنت أرى أنها خصوصية أعتز بها، تنم عن براعتي في التكتم وحفظ سرية العمل. ليس من السهل كشف سر التفوق بالمهنة خصوصاً لمن لا يعرف قيمة ما هو مخفي ومواري. العمل الثوري درة غالية وجوهرة ثمينة لا ثمن لها، ومن يعرف قيمته يربأ بنفسه أن يعرضه في السوق، فكيف به إذا كان سوقاً للأشياء الرخيصة؟

في وسيلة جديدة لإرغامي على الاعتراف هددوني، بأن يجلبوا عائلتي للمعتقل، لم أبد أي اكتراث، حتى إن (مفوض علي) حينما لاحظ رد فعلي الفاتر وقدر اللامبالاة الذي يحتويه قال:

- يا قواد، يبدو إنك لا تصدق أننا سنفعل ذلك.

وبالفعل لم يكن مزاحاً ثقيلاً منهم ولا تهديداً فارغاً، بل كانوا قولاً وفعلاً في هذه الأمور، بلا أدنى تردد يخامرهم أو شك يساورهم. أحدهم وهو زميل لي في الجامعة، كان والده فلاحاً بسيطاً في العقد التاسع من عمره، ومع ذلك لم ينج من الإهانة والأذى الجسدي؛ مما اضطر نجله على إعطائهم دليلاً

مزيفاً، كان سبباً كافياً لأن يقوده فيما بعد إلى حبل المشنقة. افتدى والده المنهك من عذابات جديدة تضاف إلى آلام السنين، ومن عناء فلاحة أرض أحبها وأعطاها عمره كله فضمته إليها سريعاً بعد أن أودع جسد ابنه فيها. أرض لم تبخل عليه بمستقر يجفف دمعه فيها؛ فمنحته أمناً وحناناً، سعى عقوداً تسعة فوقها لنيلها فلم يجدهما إلا في حضنها. وفي الأحضان فقط تهجع المحبة وينام الدفء.

8

أصبح تحدي بطشهم عملاً روتينياً شبه يومي فيه الكثير من الملل والرتابة، أصعب ما فيه الانتظار الذي طالما كرهته في كل الأحوال. أنتظرهم في حفرتي المعتمة مضمّخ بالدم وجراحي لا تكف عن النز. أحاول التصلب بإخلاء رأسي من الماضي القريب وأبعد صوره كلها عني. أترقب موعد زيارتهم الليلية بقلقٍ وخوفٍ تضطرب له أعضائي، حينما تضعف الأقفال أمام المفاتيح وترخي ممانعتها، فتلج فيها بصلابتها كأنها وتد مغتصب طائش يمزق عذريتها. يتحرك الباب المصفح بصرير مفزع، فيستبد بيَّ القلق، وحين يبلغ ذروته تصير الأولوية عندي أن أخرج من دائرة الخوف هذه. لم يكن أمامي من بدٍّ إلّا استفزازهم كي يكسروا حلقة الترقب، ويبدؤون بممارسة القسوة التي لابد منها لتجنب لهذا الترقب المزعج. الآتي قادم بلا محالة، فعلام الهروب غير المجدي منه ولمَ إضاعة الوقت في تأخير بلا معنى؟

سألني الضابط المحقق يوماً يتوقع مني اعترافاً:

- هل صفيت عقلك؟

فسددت الجواب إليه سريعاً بتحدٍ ممزوج بالسخرية كأنه رصاصة في القلب.

- ذهني صاف أساساً.

ردٌ، لم يكن يتحسبه ولا ينتظره، إنما أنا الذي كنت أتوقع رده وأتلهف إليه، للخلاص من دائرة السؤال والجواب التي تستنزف قواي في الصمود أكثر من التعذيب نفسه. كنت أوشك أن أسقط في فخ الاعتراف في لحظات الانتظار كثيراً، ولكني لم أكن معرضاً لهذا الاحتمال خلال حفلات التعذيب بالمرة. الإذعان لإغراءات الأمل لم يكن يأخذني إلى راحة البال، بل كنت أبلغها عبر طريق آخر بتخيل أن ما أخشى وقوعه سيقع فعلاً، ولا يوجد شيء يستدعي القلق. كان رده غضباً بهيمياً، فجّره بنصب أرجوحة لهيكلي المنهك من السقف، وتركه يسبح في الفضاء ويتكئ على الفراغ. أشياء كثيرة كانت ترتاد جسدي، بعضها يحفر ثقوباً فيه تعدم كثيراً من خلايا شاء حظها النحس أن تكون في بدني على خط المواجهة الأولى خط التماس، تماس مع أسلاك الكهرباء.

طالما سمعت جدلاً في أيام الدراسة الثانوية بين تقليديين ومتنورين يسألون، هل يُعقل أن توماس أديسون يذهب إلى الجحيم وهو الذي خدم البشرية كلها ونَفعها باكتشاف الكهرباء؟ كنت دوماً إلى جانب الفريق المدافع عن أديسون في كل مرة جرى فيها هذا النقاش، لأن خلود الإنسان بما يقدم من خدمة للإنسانية وينفعها، لا بما يثرثر من كلام أو يرسم من بورتريهات مزيفة للإله. بيد أني في تلك الليالي صرت أراه رجلاً شريراً اقترف خطيئة لا تغتفر بفعلته الشنعاء.

أيّ إثم قد اجترح حينما اكتشف الكهرباء؟ هل يرى الآن ما يفعل بي اكتشافه الرهيب، سواء من جنته أو من جحيمه، فما عاد يهمني أين أستقر به المقام؟ ألا يرى كيف أرتج مصعوقاً؟ هل هو نفسه الذي علمهم أيضاً أن الكهرباء يزداد شرها حينما تعلق الأسلاك في أطراف الأصابع وعند الحلمتين وأماكن حساسة لا أخدش الحياء بها كما فعل أديسون باكتشافه المقرف؟ ماذا عليك لو كتمت ذلك عنهم يا أديسون؟ وماذا كان سيحصل لو أن لي جلد سلحفاة فلا آبه لغلاظة العصي؟ أو لو إني كنت طويلاً مثل عوج بن عنق؟ أو نبت لي عنق زرافة؟ كيف كانوا سيجدون سقفاً ليعلقوني منه؟

أمنيات كثيرة مستحيلة، لم تكن هراءً. كانت جدية للغاية آنذاك. الأمر لم يكن هزلياً ولا عبثياً، بل كان بحثاً عن مخرج خرافي من أزمة لا مخرج منها. كنت مثل غريق تقذف به أمواج متلاطمة في بحر هائج ينتظر معجزة تخرجه من البحر اللجي، وأين هي هذه المعجزات؟ لقد ولى زمنها، لأنها لم تكن يوماً إلا في خيال صنّاع الجهل والأوهام، أما في الواقع فلا توجد إلّا قوانين الفيزياء. نعم، إنها أحلام ولا عيب في الأحلام، وإن لم تتحقق لأنها ليست أوهاماً، وإن بدت كذلك أحياناً. الحلم هو النهاية السعيدة لحاجة واقعية، ولو لم تكن حقيقة موجودة لما اندفع إليها تفكيرنا وتاقت إليها نفوسنا، ألا يدل العطش على وجود الماء وإن لقي طالبه حتفه في صحراء

خالية؟

ألسنا ما زلنا نحلم بالسعادة والحرية منذ بزوغ فجر البشرية على كوكبنا، ولم يتحقق شيء منها حتى الآن؟ الأحلام منفذ الخلاص الوحيد حين توصد الأبواب كلها، وإذا لم تؤد إلى الخلاص فعلاً فإنها على الأقل تمنع اليأس والقنوط من التمدد إذا لم تقتله بالفعل. من يحلم يبقى حياً، وحين يتوقف عن صنع الأحلام فهو يحتضر وإن قيل عنه أنه معافى. مع ذلك بكل صدق يمكن أن تحتويه قلوب القديسين، ورغم قسوة الجحيم الذي كنت فيه إلا أني تمنيت حينها ألَّا يقعد في محلي هذا أحدٌ من بعدي أبداً ولو كان جلادي نفسه.

في ليلة طال صبرهم كثيراً فيها، وشعرت بقرارهم المسبق بأنها سوف تكون ليلة للتأريخ. تضرعت بشدة للشمس أن تشرق، لكنها أضاعت المسالك فبقيت تدور في هيماء الظلمة تائهة كتيه بني إسرائيل. تركتني معلقاً في الهواء لأكثر من أربع ساعات كما خمنت، ينزلون بيَّ أضراب العذاب بلا كلل ولا ملل، لم يهدئوا وما فتروا ولا لهنيهة واحدة. صرت متأكداً من إرادتهم وتصميهم على وضع خاتمة لقضيتي هذه الليلة بأيّ طريقة تصل إليها أيديهم، ولو كلفهم القضاء عليَّ وإزهاق روحي. لن أعود لأشرح وسائل التعذيب التي استعملوها معي، لكن باقتضاب غير مخل أقول: ليلتئذ أبرمت جميعها

تحالفاً وثيقاً فيما بينها، وأعلنت اتفاقاً أن تزورني جميعها. بتت عاجزاً حتى عن الصراخ من الألم، وفقدت الشعور بالكثير من أجزاء جسدي لما أصابها من خدر، إلّا ما كان يسكن في رأسي فقد كان نشطاً فعالاً لأقصى ما يمكن له، كما لو أنه كان يستمد طاقته من العذاب الذي عطل كل شيء غيره. واصلت الاستمرار بالتركيز المكثف والتفكير المعمق، واسأل كيف لي أن أتخلص من عصفهم القاتل في هذه الليلة العقيمة التي لا تلد فجراً في منتهاها كما هو دأب صويحباتها؟

وأنا على هذا الحال تذكرت جولاتي في مكتبات شارع السعدون اقلب بصري في واجهاتها، وطالما أسر نظري كراس لينين "ما العمل؟". عنوان ملهم كان يثير فيّ موهبة الخلق والإبداع حينما تتراكم أنقاض الإحباط فوق ظهري وأغطس في بحيرة اليأس. سألت نفسي حان وقته الآن، ما العمل؟ الأمر لا يحتاج إلى الصمود فقط، ولن تكون الأحلام منقذي الأسطوري، لأني كنت على قناعة تامة حينها بأن لا أحد معني بي، فحتى السماء يبدو أنها قد أفلتت من وظيفتها فزعاً من وحشية الإنسان. لابد من حل سحري يمكنني على الخروج من هذه الحفرة التي وضعت فيها، وأيّ حفرة هي! كأنها جراب محكم الشد مملوء حد الطفح بضحكات سخريتهم المدوية وثورات غضبهم العارمة.

9

"أعطني خبزاً ومسرحاً أعطيك شعباً مثقفاً". هكذا قال لينين وهذا هو أوان كلمته بالضبط. فطالما أعاننا المسرح على اكتشاف أنفسنا وفهمها، فلماذا لا يكون المسرح اليوم هو المفر من هذا الكابوس المتسلسل بلا نهاية؟ هكذا حدثت نفسي وقلت لجسدي معاتباً ومشجعاً: لا تجزع! تماسك! وتحمل مزيداً من العذاب، لنجرب معاً لعبة الفرار من الموت بادعائه. سوف يكلفنا مزيداً من الألم، لكن لا تخف منه ولِمَ الخوف؟ أوَ لسنا غارقين فيه؟ فما الضير من سحابة أخرى تمطر على البحر، فهل ستزيده بللاً؟ ما عدت أصدق أن هناك جسداً يقوى على ما قويت عليه من تحمل كل هذه الآلام وإذا كان بمقدوري تجرع كل هذا، فلماذا لا أحاول أن التقم المزيد، فلعل في ثمالة الكأس الخلاص؟ بدأت بتركيز مكثف لقواي العقلية تأهباً لأداء دور المحتضر عسى أن تنجح المسرحية، ويتوقف هذا العبث فانتهي من نزيف الوحشية. ساد صمت في داخلي استعداداً لرفع الستارة، وبدأ العرض.

المشهد الأول: لم أعد أبدي رد فعل للأذى الذي كانوا يلحقونه بي. كل همجيتهم وقسوتهم التي واجهتها بالصراخ من قبل استبدلت الرد عليها الآن بكتمان الألم. أعني ذلك حرفياً، إذ ابتلعت الألم بشكل نهائي وحفرت في داخلي

أخدوداً عميقاً لالتهامه كاملاً بلا مضغ، كما يفتح الحوت فاه ويبتلع اسراباً من السمك وهناك في أحشائه تدور معركة الطحن. يسحق فريسته، متكتماً عن عيون العالم، هكذا فعلت. لم أعد أتفاعل مع أيّ ضربة هراوة تجلدني، ولم تعد تلسعني سيجارة تطفأ في أليتي. فقدت خاصية الإحساس، بل أني نحرتها من أوداجها الأربعة ففاضت دماؤها جميعاً ولم يتبق منها سوى هيكل بلا روح ولا حراك.

المشهد الثاني: أواصل إطلاق أنين خافت، وأتوجَه بآهات بمنوال واحد لا يتغير، الأمر سيان إن شنوا غزوةً على جسدي أو تركوه ينعم بسلام هدنة هم من يحدد وقتها. لم يصدقوا في البدء ما كنت أؤديه من تمثيلٍ استناداً لخبرتهم الواسعة في التعذيب، فحاولوا استفزازي للخروج من هذا العرض المسرحي بوسائل شتى، حتى إنهم جاءوا بآلة كأنها خازوق كهربائي لكنّي لم أتجاوب مع إغراءات الصراخ بصوت عال. أشحت بأعصابي، بل بكل عقلي عنها خشية أن أعيش في جوها وأسقط في الكمين. رحت أجرب التفكير في أشياء بعيدة جداً عما كنت فيه، أشياء أخجل من قولها، فقد أتهم بسببها بالسفاهة والجنون. إنما هذا ما حصل، بل أكثر منه إني انغمست في تأمل هذه الخواطر المضحكة لدرجة لم أعد معها أصدق نفسي، ودهشت كيف أنني أملك كل هذه البراعة على التغافل.

تململ البعض منهم من الوضع الجديد الذي بتّ فيه، وارتعش آخرون خوفاً من أن أكون فعلاً على وشك الفراق الأبدي لهذه الدنيا، وأنني قد أصير ضحية لعصيهم بدون أمر من جهة مخولة بتصفيتي. بعد أن دار نقاشٌ بينهم أصغيت له بتركيز شديد، أيقنت إن قرار الموت تحت التعذيب لم يكن مسموحاً به بشكل جزافي، ولا يحصل إلّا بأمر من الضابط المسؤول عن ملف القضية.

قال أحدهم: أنا غير مسؤول بعد الآن عمّا يحصل، لنبلغ السيد الضابط وهو يتخذ القرار.

زادني هذا الحوار إصراراً وعزماً، فقلت في سري، هيا امض قُدماً في اللعبة أكثر، إنها تؤتي أكُلُها. إذن، ها هو المسرح فعلاً ينتج فكرة تصنع واقعاً جديداً. الهمس الدائر بينهم أصبح حواراً مرتفعاً، ثم غدا أشبه ما يكون بالشجار. عاد عليّ ذلك بالراحة النفسية وارتفاع المعنويات، وبالراحة الجسدية بالطبع. توقف الركل والضرب بالكامل. لم يستمر الخصام بينهم طويلاً، إذ كان لابد من مرجعٍ يفصل فيما تنازعوا عليه، وجاء من يفض النزاع بكلمةٍ فيصلٍ منه بعد أن وصله الخبر.

هزني الضابط بعنفٍ عدة مرات ثم أمسى يكلمني برفق، يناديني باسمي طالباً مني أن أحادثه بأيّ شيء، وأقسم لي مغلظاً بأنه لن يؤذيني أحد بعد الآن، إن رددت عليه. كان

ينتظر كلمة واحدة مني فقط ليقرر سبيل التعامل معي، إلّا إني كنت موقناً على الدوام أن للمسرح دوراً كبيراً وخطيراً ولا ينبغي التنازل عن هذا العرض الكبير الذي أقوم به لأجل شخص تافه من النظارة لا يفهم ما يدور حوله. ذهبت محاولات استدراجي عبثاً، وانتهى الأمر به إلى يأس تام من استجابتي، وإن ما يراه ليس تمثيلاً، بل كان واقعاً فأصدر فرمانه قاطعاً النزاع.

- أنزلوه! هذا قد انتهى.

لم أعنْ جسدي على النزول من الحلقة المعقوفة المفتوحة المثبتة بسقف الغرفة رغم مساعيهم إقناعي بذلك، بل إن أحدهم كان يطلب مني بما يشبه لهجة المتوسل. رفضي التعاون أو بالأحرى تصديقهم أني عاجز عنه، اضطرهم إلى تعاون جماعي فيما بينهم لرفعي إلى الأعلى وتخليص القيد الجامع من الحلقة. في الأثناء كنت أحفز نفسي مشجعاً بأن استمر في أداء الدور إلى النهاية: "أنت ممثل بامتياز". سرى في داخلي شعورٌ نرجسي بالتباهي والإعجاب والفخر، ولأنني أجيد جلد الذات أكثر من التفاخر؛ بدأت ألوم نفسي كثيراً وأسلب منها شعور الانتصار، وأقول لها لماذا لم تفعلي ذلك مبكراً؟ كنت أرتاد المسرح مراراً، لكني لم أختر الجلوس إلّا في مقاعد الحضور، مع أنه قد ثبت الآن إنه كان بالإمكان أن اصعد على المنصة وأحدق

في النظارة ببرود وأؤدي أفضل الأدوار. إيهٍ قد فاتتني هذه الفرصة أيضاً واكتشافي لمواهبي جاء متأخراً. لا تهتم فلم يفتك الشيء الكثير فالعالم كله مسرح كما يقول شكسبير.

هبطت على الأرض ثانية بعد تحليق طويل، وأمسك بي من كل ذراع واحد من الجلادين. يبدو إنهم تواطأوا على إجراء اختبار سريع لكشف الكذب لم يكن في حساباتي أبداً، لذا لم أكن مستعداً للتملص منه. فجأة ومن دون علامة تدل عليه أو سابق إنذار تركوا ذراعيّ وحرروني من قبضاتهم المتينة التي كنت اتكأ عليها. بُغتُّ بتصرفهم الذي لم يرد على خاطري، ولكن ما صعقني أكثر من هذه المفاجأة، إني هويت إلى الأرض مثل حجر يسقط من علو ولم أستطع النهوض، بل ولا الجلوس. "ما هذا! هل فعلاً قدماي عجزتا أن تحملا جسدي النحيل؟". تكومت مبعثراً على البلاط البارد عارياً امسحه بعرقي، وألامسه بالحروق وآثار أعقاب السكائر والكدمات والجروح الموزعة بعشوائية في كل مكان من جسدي المتعب المنهك.

أية أكذوبة التي كنت أحدث بها نفسي، وأيّ هراء هذا الذي كنت سأصدقه حينما ظننت أني نجم مسرحي؟ ذاك الأداء الدرامي الرائع لم يكن إلّا وهماً جديداً وخيالاً سخيفاً، كذبتي على نفسي كانت كبيرة جداً وأكبر مما يتصور، وعليّ أن أضع كل هذا الهراء الفارغ في خانة مغلقة وانتزعه من

تفكيري وأطرحه في أول مزبلة. استبد بي الضحك سخرية، بل عصبية وتعالت قهقهة في أرجائي، وأنا أتأمل حالي وإلى ما صرت عليه. انفضت كل الأفكار عني كأن مغناطيساً هائلاً سحبها وأصبحت أجوفَ فارغاً بكل معنى الكلمة مثل قطعة من فضاء خارجي لا يسكنه إلّا أثير وهمي مخترع لا واقع له.

رفعوني كومة لحم من الأرض، وجرجروني خارج غرفة التعذيب (غرفة العمليات بحسب اصطلاحهم) إلى ممر قصير لكنه بدا لي إنه ممر طويل لا نهاية له، وهم يسيرون بيّ فيه بسرعة لم تكن تناسب كومة اللحم المتهالكة التي صرت إليها. وردت في بالي خاطرة سخيفة لا محل لها البتة في مثل هذا الموقف، وإن كانت تناسب طبعي الميال للمزاح حتى في أعسر المواقف وأكثرها جدية. قلت يا للهول كم هو مضحك منظري الآن، وأنا أمشي عارياً؟ ترى كيف سيكون رد فعل زملائي في الجامعة وبالأخص الطالبات منهم لو رأينني هكذا؟ هل هذا وقته؟ لماذا لا تتوقف عن المزاح؟ ماذا بك، هل جننت؟

أحدث نفسي بحوارات فوضوية لا رابط بينها ولا نظام في لحظات خاطفة أسرع من الضوء ومن براق المعراج، بل ومن صاحب سليمان الذي ينقل الممالك بطرفة عين. كنت أضحك في داخلي من هذا الحوار. كان شيئاً قريب لحد الاحتكاك من همس الجنون أو إنه اكتشاف متأخر لعبثية

الحياة التي لم أعد أحفل بقيمتها في تلك اللحظة. اختلط كل شيء ولم أعد أميز بين السأم والجنون. غلبتني الابتسامة وأنا أحدث نفسي، إنما لحسن الحظ لم ينتبه إليها أحد، ولو نظر لها فأنا على يقين لم يكن بإمكان حتى الشيطان أن يميزها. وجهي، بل كياني بأجمعه كان مريعاً بالتأكيد لا يساعد على تصور وجود ابتسامة فوقه، وكيف لوردة عطرة أن تعلو هذا الخراب العارم؟ أصبحت فوضى شاملة تتوارد عليَّ الأفكار وتتضارب فيَّ المشاعر وتمر فوقي الخواطر كأنها أمواج بحر هائج. سارعت محاولاً إيقاف خواطري أو لجمها قليلاً، كأني آدم يطفق سوأته بورق الشجر حين اكتشف فضيحة فعله. كنت سأنفجر ضاحكاً، وكان يمكن أن أضحك بهستيرية فقط لو أفلتت ضحكة واحدة مني، لأني بلا أدنى مبالغة غدوت في فوضى عارمة، بل صرت أنا الفوضى.

وأنا على هذا الحال كان اثنان من عناصر الأمن لا ينفكان عن السير بيّ رواحاً ومجيئاً في الممر البارد، يرفعانني بين الحين والآخر عن الأرض حين تعجز ساقاي عن مجاراتهم في المشي. شعرت بنشوة طفل صغير حينما كانوا يسيرون بيّ مسرعين ألهو معهم مرحاً برفع قدميّ من على الأرض، كأنني هو أمسك بأكف والديه وأطير. بترت علاقتي بمحتويات العالم كلها ولم أعد أفكر إلّا بهذه النزهة الإجبارية التي لم أفهم سرها ولا المغزى منها. لماذا يسيرون بي مسرعين في

الممر كل هذا الوقت، هل هو جزء من علاج طبيعي خوفاً من سقوطي في غيبوبة، أو تحفيزاً للجسد المتهالك عسى أن يستعيد بعضاً من وضعه الطبيعي؟ لا أدري، وهل كنت أدري شيئاً حينذاك؟ الممر بارد جداً كأنه مفروش بالصقيع، استحالت برودته زمهريراً. أكاد أتجمد من البرد، لأني كنت عارياً مجرداً من أيّ قطعة على الأطلاق، غارقاً في عرقٍ تصبب مني بغزارة أثناء التعذيب، وأيضاً لأني بلغت من الضعف منتهاه وخارت قواي. صار كل شيء بارداً. أصبحت أعيش في عالم لا يمت بصلة للآخرين ولا يهمني كيف كانوا يرونه، ولا أدري كيف يشعرون به. هكذا هو العالم، ليس هناك من حقيقة ثابتة فيه. كل أشياءه لها صور متعددة لا عدّ لها ولا حد، كل واحدة منها تناسب من يراها، صور بعدد أنفاس الخلائق.

القوا بيّ إلى حائط، وظللت استند إليه عارياً من أيّ خرقة تغطيني، معصوب العينين، مشلول اليدين، لا أقدر على تحريك إصبع واحد، مع أنني كنت طليقاً من القيود لأول مرة في تلك الليلة الدامية، يحيط بي صمت بارد، بعد أن تلاشت الأصوات التي تبارت على إصدار الصخب وإنزال العذاب بيّ.

10

بعد برهة قصيرة، تناهى لسمعي وقع أقدام تخطو نحوي بسرعة، ولكن بخفة قط إذ بالكاد التقطت طرق كعب الحذاء الجلدي على البلاط مع إن الصمت الثقيل كان يلف المكان. جلس أمامي مباشرة، أنفاسه السريعة تنفث بوجهي. أغلق فمي برقة لم أعهدها منذ أن دخلت هذا العالم السري، ثم طلب مني ألَّا أنبس ببنت شفة وهو يطبق سبابته على شفتي. أخذ بتحريك يديّ المشلولتين بقوة، يثنيهما ثم يعيدهما مستقيمتين. أوجعتني كثيراً وكدت أصرخ من شدة الألم، لكن بدلاً من الصراخ أعلنت احتجاجي على هذا الوجع بتأوهٍ ضعيف احتراماً لطلبه الرقيق مني بالصمت. أسكتني بحنان أكثر. صدقه كان يشع عليّ، وينفذ بلا حواجز إلى كياني، وألمس رحمة تنساب منه كالنسيم تنعش روحي، وشفقة تفيض عليّ تسكن ألم جناني، إلا ان حنانه ورقته آلمتني.

قال لي:

- إذا لم تحتمل هذا الألم الآن فسوف تفقد قابلية تحريك ذراعيك لما تبقى من عمرك، أفعل ذلك لصالحك.

غريبٌ ومثيرٌ هذا العالم، فمع كل التزاحم بين شاغليه والتنازع على ما فيه إلى حدٍ يتخيل المرء انه فوضى تحكمه شريعة الأقوى فقط، إلا أنه يفاجأ بأن يجد شخصاً يشفق عليه

مع أنه كان يظن قبل قليل أن الأكوان السبعة تحكمها آلهة الغضب والانتقام فقط. استسلمت له مصدقاً ولم يكن بالإمكان ألَّا أفعل، فقد جاء متطوعاً ليساعدني في تخطي لحظة كانت ستغير وظيفة بعض أعضائي إلى الأبد. لاح لي حنا مينا في إحدى رواياته وهو يقص كيف إن رجلاً سكيراً كان ابنه يظنه شراً محضاً تحول في لحظة إلى كتلة مشاعر إنسانية صادقة وهو يحمل طفله المريض، يركض به حافياً في البيداء، هائماً على وجهه، باكياً يبحث عن علاج يخلص فلذة كبده من حمى أصابته. يقول معقباً على تلك الحادثة: في كل إنسان بقعة مضيئة. تمثل لي حنا مينا في هذا الغار القصي كأنه وحي الأنبياء، وقال لي، هذه هي البقعة المضيئة التي حدثتك عنها، تشع عليك الآن من هذا الرجل قبالك. قم بشّر بها كل من آمن بالإنسان. مع إني لم أر وجه هذا الرجل أبداً، ولم أستطع التعرف عليه بعدها رغم بعض شكوك ساورتني في تشخيص صوته من بين أشخاص واجهتهم لاحقاً من أفراد الأمن، إلّا إني لم أستطع أن أحدده بدقة، ولم تتجل هويته لي بنحو يقيني أبداً، لكن هذا الجميل لم أنسه يوماً ولن أنساه. حادثة أكدت لي ما أؤمن به دوماً، إنه حتى عدوك يمكن أن يكون صديقك، وفي كل إنسان هناك منفذ للخير يمكن للنور أن ينفذ منه ويطرد الظلام ويملأ أرجاء النفس بالخير ويمسح الشر كله.

يوماً ما سألتقي هذا الرجل، إما على هذه الأرض، أو بعد أن نعبر الفاصل بين الدنيا وعالم الحقيقة والتجرد من الأشياء. هنا او هناك، سوف أشكره كثيراً، أكثر بكثير من الكلمات التي سطرتها الآن. سوف أشهد له الآن وبعدئذ، بأنه قدم لي درساً بليغاً، وإن محفوظاتي من القيم العليا التي كنت أقرأها في الكتب لم تكن كذبة. لقد علمني أن الإنسان يمكن له أن يكون إنساناً لو أراد ذلك، قد تكون هناك صعوبة في تحقيق هذا المأرب السامي، إنما لا استحالة في بلوغه أبداً. أخبرني هذا الرجل بفعله أنه يمكن لي أن أحب عدوي، أو ألّا أبغضه على الأقل. تيقنت أن الحب قيمة واقعية، وليست مثالية كما يصورها الشعراء، ولا يحتاج المرء أن يكون نبياً أو قديساً لفعل هذا، بل كل ما عليه أن يعود لفطرته وسوف يؤوب إنساناً، ليس مطلوباً منه أكثر من هذا. أصلي لصديقي المجهول باستمرار، وأرجو أن تكون هذه البقعة المضيئة التي سطعت أمامي يومئذ، قد ملأت روحه الآن وطردت كل الظلام. أتمنى له هذا له كما أتمناه لنفسي وآمل أن أطرد كل ظلام في حشاشتي من كره وغل لأخي الإنسان مهما كان موقفه مني.

بعد استراحة الحائط التي لا أذكر كم أخذت من الوقت، فقد تشوش ذهني كثيراً ولم أعد حينها بقادر على تخمين الأوقات ولا أيّ شيء، أخذوني إلى الضابط المحقق. بعد أن

استرددت قليلاً من قواي، شرعت عيناي تتنسمان بعضاً من نور شاحب من خلال العصابة المتراخية قليلاً، ثم نحوها جانباً بأمر منه، لأتلقى مفاجأة جديدة. ما الذي يحدث بحق آلهة الغضب والجحيم؟ أين هو النور الذي ينعكس من الأشياء كما يقول علماء الفيزياء؟ ما له لا يصل إلى عيني، هل أصابه كساح؟ أم تراه قد مات فغدا الكون بعده رمادياً غائماً؟ أم أن عينيَّ تحتضران؟ مشهد رمادي معتم بدأ يستحيل تدريجياً إلى أشباح بلا معالم تتحرك هنا وهناك. لعلي وقفت في وسط الغرفة، في الحقيقة لم أكن أعرف أين أقف في هذا الكون كله، ضاعت الاتجاهات مني وصرت بوصلة بلا مؤشر. بقيت واقفاً لمدة ليست بالقصيرة يمسكني عنصر أمن واحد على الأقل من زندي لئلا أقع. أقول على الأقل لأني لم أكن أعرف وقتئذ كم كان عدد المتواجدين بالغرفة، أسمع أصواتاً متداخلة ولا أرى أصحابها. وشوش عقلي الخبر السيء الذي تلقيته للتو باني أضحيت لا أجيد النظر، ولهذا السبب لم أتمكن من حصر العدد ولا من محاولة تخمينه لآني أصبحت في شغل عن هذه الأشياء كلها.

قال الضابط موجهاً كلامه لي:

- اجلس.

تلمست المكان ببصري المضطرب ولمحت شيئاً ما يشبه مقعداً دائرياً، تقدمت لأجلس عليه وما أن وطأته إليتي

صرخت من سخونة المقعد الذي لم يكن سوى مدفأة نفطية. قفزت فزعاً متوجعاً والسباب ينهمر عليّ من الضابط المسؤول عن التحقيق.

- غبي، هل هناك أحد يجلس على مدفأة؟

امتلأ المكان برائحة ألم، غضب، سخرية وقليل من رائحة جلد بشري لسعته نار، وقناعة راسخة عند المحقق بأني اصبحت في وضع مثالي لعدم جدوى أيّ استجواب معي. انتهى التحقيق رسمياً فعلاً في تلك اللحظة، وباشروا بإلقاء ما تبقى من ملابسي عليَّ، وقبل أن يدفعوني في حجرة المصعد وليس نزولاً على السلالم كما في كل مرة بالطريق الطويل إلى الزنزانة الانفرادية، شعرت أكثر ببرودة الأرض وتذكرت حذائي، فطلبته، لم يعبأ أحد بسؤالي. في تلك اللحظة رجع التحدي اليَّ بعد أن شعرت بنوع من الأمان من انتهاء حفلة الليلة، حاولت السخرية منهم بسؤالي هذا كما هزأوا مني. كنت مصمماً ألّا أعيش حس الهزيمة، وأظل متشبثاً بيقيني بان الفجر سيطلع يوماً ما، وسوف يطرد هذا الظلام المخيم عليَّ وعلى وطني. طلبت حذائي ثانية، وهذه المرة بإلحاح استفز أحدهم فقال بغضب:

- عجيب أمرك! أنت تموت وما زلت تبحث عن حذائك؟

11

ليالٍ استمرت ما يزيد عن أربعة أسابيع بقليل يمكن لي أن ألخصها بعبارةٍ واحدة. نفيّ قاطع لكل أنواع التهم التي وجهت لي مصحوبٌ بألمٍ رهيب. بدا إنني في طريق الانتصار على تلك المعاناة، وسرى فيّ شعورٌ من الزهو. بدأت أنتظر ذاك اليوم الذي تفتح الأبواب فيه مغاليقها لأعانق الحرية من جديد، وأعود لما كنت عليه وأدلع بلساني إليهم ساخراً. أول تباشير النصر جاءت حين أخلوني من الزنزانة الانفرادية المظلمة في القبو إلى أخرى فوقية جماعية يدخلها النور ولو من فتحة صغيرة.

اجتمعت فيها لأول مرة بمعتقلين سياسيين من طلبة جامعيين عرفت بعضاً منهم، كنت قد شاهدتهم من قبل في أروقة الجامعة. التحقيق انتهى تقريباً إلّا من بعض مواقف لا تقارن بما عشته في الأيام الماضية. أصبحت أنام مسترخياً بعض الشيء ليلاً لا أنتظر زائراً يدعوني فيه إلى حفلة تعذيب تبدأ مع الغروب وتنتهي عند بزوغ الفجر. كنت محترساً حذراً كما يتطلب الموقف من شركائي الجدد. لم أرد على استفهاماتهم الفضولية عن نوع تهمتي، ونفيت أن تكون سياسية. اخترعت تهمةً بعيدة كل البعد عن السياسة لأقطع الأسئلة، مدعياً إني كنت أتحرش بفتيات لهن وضع خاص

وجيء بي إلى هنا لتأديبي. شعوري بالألفة والثقة، وتعاطفي معهم، وما خُيّل لي من انتهاء التحقيق حثني إلى ممارسة الدور الذي أهوى القيام به بكل شغف مجدداً. الحوار في الممنوع من الكلام؛ فصرت أتحدث معهم بكثير من الأمور التي من يخوض فيها ينتهي به المطاف إلى السجن، لكن أليس نحن الآن في سجن؟ فلا ضير إذن منه. صرت في بعض الأحيان أستعرض ثقافتي بقليل من الخيلاء عليهم وبالأخص على من لم يخض في هذا المضمار وتورط بالمصادفة في هذا المأزق الذي غطسنا فيه. بدأنا نخوض النقاشات وكنت أسيّرها أحياناً، أكمل معلومة ناقصة هنا وأصحح أخرى هناك. تسرب اطمئنان إلى داخلي وصرت أتأهب لأنسى هذا الشهر الاستثنائي وأرجع ثانية إلى طريقي الذي خططته لنفسي من قبل واشرع بالدعوة لما أؤمن به ولو كنت في زنزانة. كنت أمني نفسي بتفاؤل عظيم بأنني سأفعل ذلك غداً في كل أرجاء البلد، وسوف أعود محملاً بخبرة عظيمة في مواجهة الخصوم بعد هذه التجربة المثيرة والمريرة.

كان عددنا يزداد رويداً رويداً، وأصبحنا نضايق الجدران بزحمة أنفاسنا وتلاصق أجسادنا. لم أسمع أحداً تأفف منه ولم يكن مدعاة للإزعاج بالنسبة لنا. تنوعنا في الانحدار الطبقي والاجتماعي والفكري والعرقي لم يحدث أيّ تنافر أو فرقة بيننا. وحدتنا المحنة والهدف المشترك، كما هو حال كل

الحالمين بالحرية، الحلم المشترك يلغي كل الفروقات. مرة جديدة أثبتت وقائع الأمور، إن الإنسانية والحرية ليست حلماً أممياً وحسب، بل إنها الحقيقة الخالصة التي تتجلى براقة حين تزال كل الشوائب. كل دين أو فكر أو عرق يلغي أممية الإنسانية فهو كذبة وزيف مهما قيل عنه ومهما بلغ عدد المعتقدين به، وكثرة الكذابين ليس بمقدورها أن تجعل من الكذب حقيقة.

في ليلة من كل عام كانت تهدر ساعة فيها بين توقيت صيفي وآخر شتوي، جاء من يوقظني من أحلامي ويهد قوس النصر الذي بنيته في رأسي. أزيحت ستارة كانت تغطي القضبان القصيرة في باب الزنزانة، صوت المفاتيح يصلصل كفحيح الثعبان في يد حارس يقف إلى جانبه أحدهم ينادي باسمي. أصابتني الدهشة كما الآخرين إذ لم يعهد أن زائراً جاء في مثل هذا الوقت المتأخر. كل الموجودين حسم أمرهم ولا يتوقع أحدٌ منهم أن يستدعى للتحقيق من جديد، لذا لم يُفْهَم سبب هذا الاستدعاء في هذا الوقت. ارتسمت الدهشة والوجوم على وجوه الجميع. صعدت ثانية إلى موقع الجريمة ووقفت في غرفة ما مقيداً من الخلف لكن مفتوح العينين وأطنان من سباب وشتائم وتهديد ووعيد تلقى عليَّ من كل حدب وصوب. ألف سؤال واستفهام مرَّ في رأسي في ثوانٍ قليلة وظلت كلها تدور حائرة بلا جواب. ماذا حصل

وما الذي اكتشفوه لينهال عليّ كل هذا الغضب من جديد؟ دخل معصوب العينين حافي القدمين يرتدي بيجاما صيفية، لم أتعرف عليه في البدء إلّا حين أزاحوا العصابة عن عينيه، لان مظهره كان مبعثراً بصورة مبالغ فيها. بدأ المشهد المثير.

سأله مفوض الأمن عباس:

- من هذا؟
- ذكر اسمي كاملاً.
- وماذا تعرف عنه؟

سرد كل ما يمكن أن يلقيني في غيابة الجب العميق، وأنا أنظر إليه فاغراً فمي وقد أصابني الجمود، تلاشى كل شيء. استحال أمري إلى خواء، بل إلى عدم. شعرت بأن ما تبقى لي من قوة خانتني، وأنّ كل شيء فقد إلى الأبد! ما جرى قبل تلك الساعة كان غيمة صغيرة لبدت سماء حياتي، مع أنها شديدة الظلام. أما الآن فقد أظلمت واهتز الميزان بعد تلك الأمسية العتيدة. فجأة، طمّني شعور فظيع، انتهت الحقبة الهادئة وانتهى الزيف. هل أقول إني تألمت ألماً حاداً، وكنت يائساً غاضباً متلاشياً؟ لا أعرف، لا أدري ماذا أصابني، وهل من يصل لمرحلة الهذر والهذيان يعلم شيئاً بعد؟ لقد غدوت كذلك.

اختفى كما جاء بسرعة خاطفة، ذهب دون أن يكلمني. غادر هذه الغرفة، بل خرج من حياتي كلها محملاً بالازدراء،

وطويته إلى الأبد في خانة المهملات. قبل هذه اللحظة كان الباب موصداً، وكانوا يتوسلون الدخول عبره بأية وسيلة، بالعذاب أو بالكلام المعسول. أما الآن، فقد فتح بنفسه الأبواب على مصراعيها متطوعاً وبلا ثمن. لن يأتي إليه أحد متملقاً بعد اليوم، ولماذا يأتون وقد أصبح مفتاح خزينة الأسرار في أيديهم؟ أما الثمن الذي كان يرجوه منهم سوف يذوقه قريباً جداً مزيداً من الاحتقار ومضاعفة العذاب حتى يسكب آخر دلو من بئر الأمانات التي اؤتمن عليها يوماً.

بِمَ سأحدثك يا صاحبي؟ هل أقول لك إن جرح الخيانة لا يندمل ولو جئته بعقاقير الأرض والسماء؟ لن تنفع مع الخيانة القرابين والنذور التي سوف تقدمها للآلهة تكفيراً لفعلتك، فمهما زين لك الكهنة رضاها فلن أرضى عنك. الأمر يعنيني أنا وحدي ولا يعنيها، بما انتهكتَ من سرٍ ونكثتَ من عهد وخرقتَ موثقاً. الخيانة خطيئة، وذنب غير قابل للتكرار، لأن مقترفها يموت في الحال. لن يقوم بعدها أبداً، ولو لمسه يسوع الناصري بكل سلطانه ولو ذبح له بنو إسرائيل قطيع أبقارهم الصفر كلها. ألم يقل لك أحدٌ من قبل إن عشبة اتونابشتم الحكيم وسر الخلود فيها لا تمنح الحياة لأحد، إلّا للأفاعي؟ ألم يقولوا لك إن بناء أوروك وحده هو الذي منح البشر الخلود؟ لماذا بمعولك تهدم أوروك يا صديقي؟ هل تفعل كل هذا حقاً لأجل عشبة ستفقدها في أول استراحة

وتسرق منك مع أول إغماض جفن وغفلة عين؟ كم أشفق عليك! لن أحقد عليك أبداً، ولن أحاول أن أبغضك ولو للحظة واحدة، فتلك مشاعر تليق بالأنداد، أما أنت فقد حزمت حقائبك ورحلت عنهم اليوم إلى أرض لا إياب منها أبداً. الذي كان يجمعنا انفرط، وطرف الحبل الذي ما يزال معقوداً في فؤادي يمده بالدم أنت قد فككته، هل زين لك أم أوهمت نفسك بأن الفؤاد يمكنه العيش بلا دماء؟

قد مات قلبك يا عزيزي ومن مات قلبه لم يعد إنساناً وإن عمّر ألف سنة أو يزيد. وداعاً يا من غادرت القرب إلى المنفى البعيد. لن يصل إليك صوتي ولن تحمل الكلمات أيّاً من مشاعري إليك، لا حباً ولا بغضاً ولا أيّ شيء. تهاوت القناطر والجسور بيننا، وصرنا على ضفتين متباعدتين ما بينهما هوة سحيقة بحجم لا نهائية الكون المتباعد والمتوسع في كل حين. لا يمكن لي الاحتفاظ بك لأنك قد متّ. الاحتفاظ بجثة حليقة الذقن وبربطة عنق بهية وبدلة فاخرة لن يفلح في إخفاء رائحتها النتنة بعد سويعات قليلة. لن يجدي أي شيء مهما نجح في تزيين صورتها ولو وضعها في كفن خشبي من أفخر أنواع الصاج، فجيفة الفطيسة لن تخفيها عطور باريس، بل الأرض كلها.

12

بعد أن خرج الذي أدلى باعتراف كشف فيه المستور وأزاح الحجاب عن المخبوء، التفت اليّ مفوض الأمن علي وقال بنبرة تهديد مرعبة.

- الآن ماذا تقول؟

جمدت الدماء في عروقي من هول المفاجأة وحجم الخيانة التي لم أجد لها مبرراً أبداً، فكل شيء كان بالإمكان تجنبه، بل أصلاً لم يكن هناك شيء يتجنبه. تطوع مجاناً لإلحاق الهزيمة بنا معاً. هكذا تخسر المعارك، حينما يملأ الرعب قلوباً خاوية؛ تشم الوحوش رعب ضحاياها، فتنقض عليها تنهشها ومن ثم تتركها جيفة في العراء. الآن، وبجلسة قصيرة انتهت حفلات التعذيب التي راقصت فيها بمهارة كل براعة الجلادين. أضحيت عاجزاً حتى عن مراوغة سلحفاة ميتة، وخارت قواي دون أن يمسني أحد. مادَتْ الأرض بيّ، ولم تعد قدماي ترفعانني، وهما اللتان حملتاني وأنا معلق في الفضاء. بلغ بي الوهن مداه والضعف غايته فانحنيت خاضعاً ذليلاً منكسراً. كنت كأني سارية من حديد صلب مستها نار مستعرة؛ فشرعت تلتوي وتنثني لجبروتها وقسوتها. لأول مرة ألتوي والتمس من جلادي شربة ماء، فقد جفّ حلقي ويبست حنجرتي واختنق صوتي. لم يؤذن لي برشفة ماء واحدة.

فقدت توازني بالكامل، ولم أعد أتحكم بعقلي. من الشاق تصوير حالي وقتها، فلا يقدر أي شخص سواي أن يشعر بعمق الألم الذي كنت أعانيه، ولا أن يتصوره لسبب بسيط هو أنه ليس أنا، ولن يكون. لقد جردني صديقي من كل أوراقي بعذاب مخزٍ، وصنع من تاريخنا مشنقة لنا.

واصلت التقوض فرجوت المحقق أن يسمح لي بالجلوس فأبى مستنكراً ذلك عليّ. كنت أشبه بالمتسول إذ لم يكن صحيحاً وصف ما أقوم به بالرجاء، بل كان استجداءً. عرف مفوض الأمن أنها فرصته المثالية لتوجيه الضربة القاضية فاستغلها لحد الثمالة.

- أعترف أنك منهم وسوف أعطيك ما تريد وإلّا.. (كلمات نابية).

- نعم، عملت معهم سابقاً.

- لماذا لم تبلغ عنهم إذا كنت قد تركت التنظيم فعلاً؟

- سوف أكون صريحاً معك، كنت أخاف منكم أن تعتقلوني لو أتيت لكم وكشفت انتمائي، والدليل الآن فهل سوف تطلقون سراحي بعد اعترافي؟

بالغ في إذلالي، أضحيت ذليلاً بذاتي بلا حاجة لمن يذلني، خاوياً من الأفكار والمشاعر. صار القبر أحلى أمنية لي في تلك اللحظة، ليت الأرض تفعلها فتبلعني أو السماء تستعجل أمرها فتتلقني إليها. ما الحياة إلّا الحرية والعزة

وخلاهما موت، واليوم سلخت عنهما تماماً. لحظة، بل كانت دهر لا يمكن نسيانه أبداً، لأنها كانت أشدها وقعاً عليَّ طيلة عمري والأكثر إيلاماً في سنوات سجني كلها. قبل سويعات، كنت أرى نفسي مثل أخيل لا تنال منه السيوف ولا الرماح والآن سهم واحد يقتلني. هكتور الذي صرعته بصمودي يضحك ساخراً مني، فقد بان كعبي ونال سهم باريس المبتغى. ها قد نفذ السم فما عادت تحملني قدماي، بدلاً من الماء الذي استجديته وضيعاً كي أروي به ظمئي أعطاني قلماً وورقة تقيأت عليها إمضاءً مرتبكاً طمس نفياً وإصراراً عمره خمسة أسابيع.

كتب المفوض أقوال لم اقرأها وطلب مني التوقيع، لا أدري ماذا كتب ولم أكن بحاجة لذلك، لأنها كيفما كانت فهي لن تكون سوى صك إعدام مؤكد. فكيف لك أن تبقى تمشي على سطح الأرض وأنت تعترف إنك في خلية حزب معارض في بلد لا يؤمن حكامه إلّا بحزب واحد، وفكر واحد، وقائد واحد؟ وما خلا ذلك فهو حثالة متآمر أو خائن.

دخلت على أصحابي متلاشياً، أحمل على وجهي تكشيرة تشبه ضحك أبله مجنون. وقف أمامي واحد منهم يستفهم عما جرى، وبعد أن فهم الذي حصل سألني باستغراب وحيرة.

- كيف تضحك وقد أعطيتهم صك الإعدام؟

لـم يستوعب ضـحكتي الحنظـل وشعرت بالأسـى مـرتين، مرة عليه لأنه كان ضحية لا ناقة له ولا جمل فيما هو واقع فيه، ومن العسير عليّ أن أعطيه درساً عن شعور الهزيمة الذي يحل بثائر رومانسي حالم في لحظة النشوة بخمر الانتصار، ومرة أخرى على نفسي فكيف سوف أتجرع كل هذا الحنظل وحدي؟ إن مرارته أقسى من كل ما قرأت وسمعت، وأكثر مرارة من لحظة فراق الروح للجسد والعبور إلى ضفة المجهول على مرارتها. لعل الموت كان شهداً لو قورن بما حصل لي للتو. إن كان في الحياة ساعة تتجمع فيها الآلام كلها فقد كانت هذه الساعة الغريبة بما فيها. حدث هذا كله تحديداً وانا أسمع الإعلان عن تغيير الوقت الصيفي إلى شتوي ينبثق من تلفاز قريب. ما كان لهذا الوجع الاستثنائي أن يحصل في زمن كباقي الأزمنة، لابد أن يبحث عن نقطة خارج الزمان ليندس منها. وقف التاريخ بوجهه قائلاً: لا يصلح ان يكون لك في خط الزمن من حضور، فانسل من منطقة الفراغ ودائرة العدم، فخلق لحظة ضالة لا تنتسب لتاريخ الإنسان ولا يجدر بها أن تكرر ثانية.

الآن بدأت مرحلة عزف لحن الختام. تملكني رعب هائل من النهاية المتوقعة، ولا يُدرى متى تأتي الساعة، فإنها تأتي بغتة. كانت الرؤيا التي رأيتها في أول أيام اعتقالي تعدني بالحكم بالسجن المؤبد، أما الآن فقد بات الواقع أكثر قتامة.

هاجس الخاتمة المروعة أصبح نقشاً محفوراً في تفكيري لا أجد سبيلاً للخلاص منه. المؤشرات جميعها تتجه نحو الإعدام شنقاً، ومنها ما حصل عند حلول فصل الشتاء. في أحد الأيام اقتادونا إلى مخزنٍ في البناية نفسها ليعطونا قطعة شتوية (بلوز)، بعد أن تهرأت ملابسنا الصيفية، التي كنّا نرتديها ساعة اعتقالنا شديدة القيظ، ولم تعد قادرةً على مقاومة برد الشتاء. أغلب الموقوفين كانوا يرتدون ملابس بيتية، بل بعضهم كان بملابس النوم. لم يكن رجال الأمن يسمحون لاحد أثناء الاعتقال بارتداء قطعة إضافية أو تغيير ما يرتديه. يأخذون من يريدونه بما عليه وبأيّ زيّ كان، لا يراعون أيّ وضع هو فيه. أحدهم كان نائماً على سطح الدار مثل عادة العوائل العراقية آنذاك في موسم الصيف، حينما داهم رجال الأمن الدار ليلاً. صعدوا إلى السطح يصوبون أسلحتهم اليه وسحبوه من فراشه بملابسه الداخلية. كان محظوظاً لأنها كانت طويلة قليلاً والقسم العلوي بنصف كم. أثناء تسلمنا لتلك البلوزات قال النقيب حاكم البكاء، وهو ضابط أسمر قبيح متجهم الوجه عابس الهيئة ذو خلق سيء فوق المألوف:

- أعطهم بلوزات سود حتى يعرفوا إلى أين هم ذاهبون.

صار الأمر واضحاً لا لبس فيه، وما علينا الآن إلّا أن نتسلى بما تبقى لنا من أيام في هذه الدنيا، وبات حالنا مثل نبتة تذوي في نسيان تام.

تملكني شعورٌ جارفٌ من اليأس، وأصبحت عبثياً في تفكيري وأحاسيسي. بلغ عدم الاكتراث مني مبلغه فصرت أتمنى بأن أحس بأن هناك في الوجود ثمة شيء خليق بالاهتمام والعناية. قلبي الذي به أحب وأكره صار ثقيلاً بارداً لا ينفعل من أي شيء كأن صدري قد خلا منه. رحت أتساءل عن جدوى العقل في مدفن كهذا الذي نحن فيه. أكثر شيء كان يعذبني هو سخطي على نفسي، لأني كنت أخجل من نفسي في كل مرة أتذكر فيها موقف الاعتراف، وهل نسيته لحظة لأتذكره؟ صرت اشعر بإحساس من المرارة، والأسى على حياتي التي مضت بهذه السرعة من دون أن أحقق شيئاً. أحس بالندم لأني هدرت شيئاً لا يقدر بثمن، وكان بوسعي أن أستثمر ما كنت أملكه أفضل مما فعلت، وهل ما فعلته يستحق المقارنة بشيء، إنه لا يستحق سوى الاحتقار؟ ألوم نفسي بصرامة، وأحس بالعار يلبسني ويشي بسوءاتي، ولا يفتأ سؤال يقرعني ليل نهار، لماذا لم أقاوم وأرفض الاعتراف حتى مع حصول الخيانة؟ أؤنب نفسي لماذا لم تثبت وتتحدى؟ ما الذي دهاك، وممَ خفت؟ من الهلاك؟ الآن سوف تفطس أيضاً، ولكن كيف؟ محبطاً.

كنت كمن يجلس في ساعة رمل محبوساً في زجاجة يعجزه الخروج من عنقها الضيق ويستمر تساقط ذرات الرمل عليه ليدفن تحته بلا أيّ مقاومة. كنت سأبلغ مرتعي المظلم نفسه في المقبرة لكن في خلو من هذا الشعور بالهوان والازدراء. ربما كنت سوف أردها بإحساسٍ من البطولة والتحدي، وأترك المرارة في نفوس الجناة وليس كما الحال عليه الآن. هم الذين انتصروا، وأنا الذي أعيش مملوءاً بالخيبة لا تبارحني مرارة الهزيمة. مواقع كان لنا أن نتبادلها لو واصلت الصمود؟ الشجاع يموت مرة والجبان في كل يوم مرة، لا بل ألف مرة. كيف لي أن أشفى يوماً من تلك المشاعر المؤلمة، أشعر بأن فؤادي قد طُعن ولن يبرأ إلى الأبد.

لو قاومت فلن يحصل أكثر مما جرى على عبد الكريم البديري الطالب في كلية الهندسة الكهربائية تحت التعذيب. كان قد سبقني إلى الزنزانات الفردية إلّا إني لم أره، بل سمعت عنه فقط. رآه أحدهم أثناء التحقيق وهو ملقى على الأرض بإهمال يرتدي دشداشة، عاجزاً كلياً عن الحركة، وقد شُلَتْ ذراعاه. بدا ضعيفاً منهكاً لا يقوى على الكلام إلّا بصوت واهٍ خافت ضعيف كأنه همس مبحوح. كان الأمن قد عرّوه من ملابسه الداخلية كما فعلوا بنا جميعاً؛ فكُشفَت عورته بعد تهرء ما كان يكتسي به من جراء التعذيب

المتواصل. طلب من أحد المحتجزين أن يمكنه من طرف دشداشته ليستر نفسه لأنه بات عاجزاً حتى عن فعل ذلك. في صباح يوم كان الحرس يوزعون شوربة الصباح (حساء العدس)، وطلبوا منه النهوض لاستلامها لم يرد. صاحوا به عدة مرات فلم يرجع لهم من جواب سوى صدى صراخهم؛ مما اضطرهم لفتح باب الزنزانة الانفرادية، ليجدوه جثة هامدة. سحبوه في بطانية وأخذوه إلى مكان مجهول. لم يعثر أحد على جثته ولا رفاته، مثله مثل عشرات الآلاف من ضحايا التعذيب. كان تغييب جثث القتلى السياسيين إجراءً نمطياً تقوم به السلطة، وظلت عوائلهم تجهل أمرهم ولا تعرف مصير أبنائها المغيبة إلى الأبد.

المتفائل المحب للحياة وللأشياء الجميلة التي يتابعها من أدب وموسيقى ورياضة، وباهتمام يصل حد الهوس أحياناً، صار في تلك الأيام شخصاً محبطاً يائساً من الحياة، وصار العيش فيها بنظره عبثاً لا طائل منه. ان هي إلّا جرعات قليلة من هواءٍ يتنفس، وبعدها سوف يوارى في غور عميق بأرض لا إياب منها. مع كل هذا الضعف والمقت لذاتي حينئذ، إلا أني رمقت السماء في ديجور إحدى الليالي من دجنة تحت الأرض بقلبي، إذ لم يكن هناك من سبيل حقيقي لرؤيتها. أطلقت أمنية مخلصة خرجت من قرارة نفسي، من أعمق نقطة ما فيها. "لا أريد أن أغادر الآن، سأقنع بأيّ الحلول إلّا هجر

هـذه الـدنيا عبـر المقصـلة". أكملـت حـديثي مـع مـن كانـت تخاطبه روحي. "إن حصل هذا سوف أستبدل ذاتي المنهزمة بأخرى تستعيد البصر في هذا الظلام الدامس، وسوف أحيله نوراً ساطعاً". لماذا حدثت نفسي هكذا، وكيف اتخذت هذا القـرار، لسـت أدري. مـا أعرفـه أنـه كـان طلبـاً مخلصـاً وقـراراً صادقاً أتى من منطقة لم أتعامل معها من قبل، وأجهل إلى من تنتمي، هل إلى الوعي أم اللاوعي؟ جهلي لم يكـن ضـاراً، لأن القـدر قـد صـنع قـراره وفقـاً لهـذه اللحظـة، ورأى مـن غيـر المناسـب أن اشـد الرحيـل إلـى العـالم الآخـر حينهـا. لعلـه مـا زالـت تعـوزني أشـياء كثيـرة قبـل السـفر الأبـدي، ولربمـا شـاء القدر أن يرسلني إلى السجن كي أتعلَّم جوهر الحياة والحرية وأبـوح بـه إلـى النـاس، أو أن أكـون شـاهداً علـى الجريمـة. الرحيـل مـع الأنقيـاء الـذين يكتبـون التـاريخ ويـروون شـجرة الحياة بدمائهم، هذا ثوب لـم أستحقه مثلهم، كل شيء يأتي بوقته، وعندما أكون جاهزاً له حينها سوف أستحقه.

13

صار عليّ أن أنتظر موعد المحاكمة التي تعلن عن مصيرنا المقرر سلفاً، في زنزانة لم تكن تزيد عن اثني عشر متراً مربعاً. عددنا في أقل الأحوال لم ينقص عن ثلاثة عشر شخصاً. يأتي البعض ويروح آخرون، لكن نحن كنّا سكاناً أبديين فيها. استوطناها وألفناها جيداً وحفظنا زواياها وكل ما نقش على جدرانها. مقدمتها كانت باباً حديدياً مصفحاً ثلثه العلوي قضبان سميكة يستعصي ثنيها أو التلاعب بها حتى من شمشون نفسه، تغطيها ستارة بشكلٍ دائم من الخارج لا ترفع إلّا من قبل عنصر أمن يريد الحديث معنا. كان في الغرفة شباكان أحدهما طويل، ولكنه ضيق بعرض لا يتجاوز النصف قدم، أما الثاني فهو على شكل مربع صغير لا تتجاوز مساحته ثلاث أرباع القدم المربع، إلا أنهما كانا كافيين لمرور الهواء وأشعة الشمس بمقدارٍ جيد بالنسبة لمحتجز كالذي نحن فيه.

الأرض إسمنتية خشنة والجدران صفر، لونها لا يسر الناظرين، سواء كان فاقعاً أو باهتاً. لم أستسغ الأصفر قبل أن أرى هذه الجدران، وبعد أن رأيت هذه الحيطان القبيحة ازدادت ثقتي بذائقتي في الألوان، وبعدت أكثر عن هذا اللون البشع الذميم. لم أكن واثقاً من سبب انتقائهم لهذا اللون، هل هو مجرد مصادفة أم أنه جزء من حرب نفسية؟ ترى لو كانت

مصبوغة بالأزرق الباهت أو بلون السماء هل كان ذلك سوف يساعدني ويخفف من الكآبة التي غطست فيها؟ لربما، فهذا كان لوني المفضل وقد استعيد عند رؤيته صورة ما كنت انتقيه من ملابس بعناية من محلات الأزياء المنتشرة على جانبي شارع الدواسة في الموصل. كنت أذرعه في مسيرة شبه يومية بصحبة رفاقي، نقلب متاجره، ونرتاد مقاهيه ونسبر أغوار مكتباته عمّا يروي ظمأنا للفكر والمعرفة. حينما نظفر بكتاب ممنوع منسياً على أحد الرفوف في غفلة من أعين الرقباء، نسرع لاقتنائه. ثم نعود نتأبط خيراً لنجلس في مقهى نتسامر بصيدنا الثمين. لعلّي أيضاً سوف أذكر رحلاتنا في حدائق منطقة الغابات ونحن ننشد أغانينا الثورية ونحتفل بمناسبات خاصة بنا، أو سوف أذكر جلساتنا الثقافية ونقاشاتنا التي لا تتوقف في السياسة والأدب والفن.

عسى ولعل وربما وكومة الاحتمالات السخيفة كلها لم تكن تغير من الحقيقة بأن هذا اللون الأحمق هو السيد الأعلى الآن. نظرة واحدة له كفيلة بأن ترجعني إلى قوقعة الحزن والكآبة فوق بطانيتين خضراوتين رقيقتين فُرِشَتا على الأرض. أحدق نظري في ثلاث أخريات كدست فوق بعض تستعمل كغطاء حين النوم. كل واحدة منها كانت تسع نفرين، لكن في الواقع كان يندس تحت دفئها الباهت أربعة إلى خمسة أنفار اعتماداً على العدد المتغير بخلاف السكون الذي يخيم على

حياتنـا. كنّـا نفتقـر الوسـائد، فصـنعنا بـديلاً عنهـا مـن النعـل والأحذية التي لم تصادر، وأحياناً من أشياء لها ارتفاع يصلح أن يكون متكئاً لرؤوس تبحث عن راحة مؤقتة قبل أن يحين موعد قطعها القريب. نجلس وننام بعيداً عن باب وضع عنده جردل كان يطفو على سطحه بشكل دائم قدح بلاستيكي نغرف به الماء لجميع الاستعمالات، وأولها الشرب. لحسن الحظ كان اللبن الرائب يصلنا في كؤوس بصورة دورية؛ لذا كان خزيننا منها جيداً. في حالات طارئة جداً استعمل هذا الجردل كَمَبْوَلَة حين كانت تطول الفترة كثيراً بين فرصة وأخرى لمراجعة دورة المياه. لم يحتج أحدٌ على هذا الانتفاع المقزز، إدراكاً من الجميع إن الحلول البديلة غير متوفرة. ولا سبيل للشكوى، والشكوى لمن؟ وإن اشتكى فلا فائدة منها، فالإنسان لا يستجيب لأخيه الإنسان، فكيف ونحن نقطن وادياً تسكنه حجارة صماء؟ التذمر والشكوى لم يكونا مخرجاً من أيّ أزمة على طوال التاريخ، ولن يكونا كذلك اليوم. رغم هذا كله كانت أحوالنا تعد جيدة، وربما مثالية قياساً لغيرنا ممن يعيش في معتقلات أخرى بالغة السوء. هذا الوصف قد تشمئز النفس منه ولصاحب الشعور بالاشمئزاز الحق كله، إنما لنا أيضاً الحق كله في اعتبار هذا الوضع المقرف ظرفاً مثالياً. كل شيء رهن بالزاوية التي ننظر منها للأمر، الأمور نسبية وليس هناك من مطلق، كلٌ يرى الأشياء بهيئة تناسب

موقعه. لا توجد حقيقة واحدة ولا صورة ثابتة ولا وصف مطلق لأيّ شيء في الوجود إن كان ذاتاً أو معنى.

كنا نحظى بثلاث فرص للخروج من الزنزانة، لقضاء حاجتنا بعد كل وجبة طعام وهذا سببٌ إضافي للإزعاج، لأنه يعني مع كل وجبة نصبح معرضين لنيل حصة إضافية من هراوة رشيقة صلبة. في الواقع أنا لم أرَ هراوة، بل ما رأيته هو (الكَبْلُ) وهو حبلٌ معدنيٌّ تحيط به مادَّةٌ عازلة لها غلاف واقٍ. كنت أسمع الناس يتحدثون عمّا يلاقيه المعتقلون من تعذيب، يقولون: يشبع صوندات. الحقيقة إني لم أرَ واحدة منها في أيّ من الأماكن التي زرتها، بل كانت دائماً إما كَبْلاً أو مواسير معدنية وفي حالات خاصة كانوا يستخدمون "حديد زاوية" كما يسميه العراقيون وهو الحديد المستخدم عادة في صنع الأبواب والشبابيك. لم يكن الأمر مقتصراً على ضربة هراوة، بل يصحبه دوماً سباب مقذع وشتم للأحباء والمقدسات وزعيق بلا مبرر ولا معنى. وأحياناً بسبب تعكر مزاج حارسٍ منع من التمتع بإجازته العادية، يأتي فيصب غضبه واستياءه وكدره علينا بأنواع من الإهانة والإذلال.

بدأنا في هذه الزنزانة شطراً جديداً من عيشنا، نشكل فيه عالماً جديداً خاصاً بنا. نصنعه بطريقة بدائية تحكي قصة إنسان يحاول أن يباعد جدراناً، وإن استمرت بالثبات في محلها. امتد إلينا الشتاء حاملاً معه ليالي مسهبة في الطول في

وقت كنا نعجز فيه عن العبور بين ضفتي النهار القصير بلا ملل، فكيف لنا أن نغتال كل هذا الزمن الثقيل؟ لا كتاب نقرأه ولا مذياع نسمعه ولا تلفاز نشاهده، كلها أضحت محظورات، بل من المستحيلات. هذه الأشياء تقع هناك بعيداً في ذاك العالم العجيب حيث الضوء والحرية والألوان، عالم صار حلماً، خيالاً وأوهاماً. واظبنا لبرهة من الزمن على اجترار ما حصل لنا في التحقيق بأحاديث طويلة عريضة وبتكرار كنّا لا نخفي تأففنا منه، لذا بدأ يتسرب ضجرٌ وسأمٌ منها، وصرنا نمقت هذه القصص لأنها غير ذات بال ولا أهمية لها، لا نجني منها شيئاً سوى تكريس الهم الذي نتوفر على قدرٍ كبيرٍ جداً منه. إلى أن قُدحت شرارة فكرة للتسلية، فكرة كانت غريبة، ولكنها جيدة، لا أعرف برأس مَنْ لمعت ولا كيف قُدحت في ذهنه أو من أين اقتبسها.

لم لا نجرب صنع شيءٍ ما من فتات الخبز ليكون تصبيراً وتلهيةً لنا، ولربما يواسينا أيضاً؟ على الفور ارتفع منسوب حرصنا بلب الصمون وغدا محطاً لاهتمامنا، وبتنا نولي له عنايةً فائقةً حينما نتناول أيّ من وجباتنا الثلاث. صرنّا نعزله في حرصٍ متناه حتى لا يضيع منه شيء، ثم نرجعه عجيناً بعد خلطه بالماء. ومن بعد ذلك نعيد تشكيله بصنع خرزات نحاول أن تكون كروية الشكل قدر ما نتوفر عليه من مهارة. كنّا نحفظ مصنوعاتنا في مكان آمن بعيداً عن الأقدام التي قد

تدهسها بالخطأ، وهو أمر كان مرشحاً للحصول في أي لحظة مع ضيق المساحة وكثرة العدد. اخترنا حافة الشباك الرفيعة لتكون المخزن الأمين لحفظ صناعتنا الأثيرة. لم يكن اختيارنا هذا بسبب بعده عن الأقدام وحسب، بل لأنه الجزء الوحيد الذي يتعرض لأشعة الشمس. نتركها تنشف، ثم ننظمها لاحقاً في خيطٍ نستلهُ من البطانيات التي نفترشها، وبهذا نصنع مسبحة عجينية. لم يكن أحد يستخدم هذه المسبحة لمآرب دينية أو ترفيهية إلّا في أوقات نادرة، لأنها كانت صناعة رديئة سريعة التلف، ورغم ذلك كانت مفيدة ومثلت انعطافاً وتحولاً مهماً في حياتنا. إنتاجها كان يبتلع الزمن بشراهة، وهو أمر رائع كنّا نبحث عنه فوجدنا ضالتنا فيه. تقضية الوقت في اللا شيء كان يشكل عامل ضجر مزعجاً لنا، وظهور شيء يبدد هذا الملل لابد أن يكون موضع ترحيب حقيقي من الجميع. تطلب صنعها منّا أيضاً جلداً عجيباً في وقت كنّا بأمس الحاجة للمزيد منه، صبرٌ يقوينا على ما نحن فيه. انهماكنا في ابتداع شيء ما خلق فينا إحساساً رائعاً بأننا ما زلنا على قيد الحياة، ولم نزل نملك القدرة على الإبداع والإنتاج والخلق. شعور رائع بأن ننسى أننا محكوم علينا بالموت ونتعامل مع المأساة بروح ساخرة.

قد يكون المنتج أمراً تافهاً ليس بذي قيمة لكن مع ملاحظة الظرف الذي نعيشه، كانت عملية تصنيعه وخلقه أمراً

حيوياً بالنسبة لشخص مثلنا جهد جلادوه على تحطيمه نفسياً ونزع كل رغبةٍ عنده في البقاء. قد لا يدرك أهمية ذلك إلّا من عاش في هذه الظروف المزرية. محاولة تجاوز المحنة بالتأقلم معها بدلاً من العيش في الواقع المر والاستسلام له والخضوع لظله الثقيل شكل منعطفاً نفسياً استراتيجياً مهماً. الخضوع والإذعان يؤدي حتماً إلى الكآبة التي تعد انتحاراً مؤجلاً، أما التغلب على الضائقة والتعامل معها كأنها واحدة من المصادفات الروتينية فسوف يقلل من آثار السجن النفسية كثيراً. وهذا ما حصل بوضوح بعدئذ عند كثير من السجناء غيروا حال السجن إلى واقعٍ آخر، وانكشفت حينئذٍ القيمة المعنوية الكبيرة لعملية صنع المسبحة العجينية. كم من حدثٍ في الماضي غير مجرى التاريخ، ولكنه يعد تافهاً بمقاييسنا الآن، لذا لا يصح الحكم على الأشياء والأحداث بقيمة مطلقة، قيمة الأشياء تأتي من قراءة السياق الذي ولدت فيه.

استهوتنا الفكرة كثيراً، وشرعنا بمرحلة جديدة من تطوير صناعاتنا. ومع إن العجين قد نفخ فينا روح مواصلة الحياة، إلا أننا كنّا ناكري جميل فهجرناه لهشاشة مخرجاته وتكسرها السريع. قررنا التحول إلى صناعة أكثر تطوراً وأجود نوعية، وهذه المرة من نوى التمر الذي كان يصلنا بين الحين والآخر؛ مما جعل جمعه يحتاج لوقت طويل بخلاف العجين. تشذيبه على الأرض الإسمنتية كان يستغرق منّا أحياناً شهراً

كاملاً وربما أكثر. نعم، هذا الوقت كله لأجل صنع مسبحة واحدة ليس غير. لم يكن الأمر عملاً يسيراً وأضف إليه ضعفي المزمن في المهارات اليدوية، التي لم تنفع لا أيام السجن الطويلة ولا أوقات الفراغ الهائلة في تطويرها.

بدأ ما علينا من ثياب يبلى أكثر مما هو عليه، وباتت أرديتنا متشققة يكاد نسيجها يتفتت وحده. غدت أسمالاً بالية بالمعنى الحرفي للكلمة. كان لابد من خيطٍ وإبرة لعلاج بعض التصدعات في أماكن لا يصح التغاضي عنها لحساسيتها. السؤال الكبير: ما هو السبيل إلى الإبرة والخيط في زمن الممنوعات الكثيرة؟ كلما يصادفني ممنوع كنت أتذكر قصيدة أحمد فؤاد نجم فأرددها بلحن شيخ إمام.

ممنوع من السفر.
ممنوع من الغنا.
ممنوع من الكلام.
ممنوع من الاشتياق.
ممنوع من الاستياء.
ممنوع من الابتسام.
وكل يوم في حبّك.
تزيد الممنوعات.
وكل يوم بحبك.
أكتر من اللي فات.

كنت أردد المقطع الأخير كثيراً "وكل يوم في حبك تزيد الممنوعات وكل يوم بحبك أكثر من اللي فات". نعم، من يهواك يا وطني بشغفٍ كبير يعاقب عقاباً صارماً. صوت الضمير والفطرة كان يتحدى في داخلي ويأبي الاستسلام رغم ما كنت فيه من اضطراب وتراجع نفسي هائل. دافع غريزي جُبلت عليه الفطرة الإنسانية مَثُلَ أمامي مغلقاً المنافذ كافةً على أيّ خيار سواه. كانت محاولة أشبه بعبث مجنون، لكن كان لزاماً عليّ فعلها، لأن ما مضى قد انقضى ولا سبيل لعودته، وما انفرط عقده لا يمكن جمعه، وما سُكب امتصته الأرض إلى عالمها السفلي.

لم نعدم حيلةً للوصول إلى ضالتنا من الإبر فيما كان يقدم إلينا في فترات متباعدة من عظام الدجاج؛ إذ كنّا نفتش بين العظام عن أدقه ونصنع منه إبرة بعد معالجة بالأرض الإسمنتية. أما الخيط فكان أمره هيناً، إذ لم يكن علينا إلّا سحبه من واحدة من البطانيات التي نفترشها أو نلتحف بها. عملية انتزاع الخيوط المتواصلة كان لها بالتأكيد عامل فعال وتأثير مباشر في تقليل عمر هذه البطانيات. في الواقع لم نكن نبالي بهذا كثيراً، لأنه مهما حصل وسوف يحصل ولو تكرر انتهاكنا لنسيجها مرات ومرات فإن عمرها في كل الأحوال سوف يكون أطول من أعمارنا. بهذا كنا نحدث أنفسنا ولربما أحياناً يهمس به بعضنا في أذن زميل يجاوره، إذ كنّا نتحاشى

التصريح بالنهاية المروعة التي تنتظرنا كما يتحاشى الناس تسمية السرطان حينما يصيب أحدهم، فيقولون أصيب بذاك المرض كأنهم يخافون من بطشه السريع أو إنهم يعترفون بأنه جبار لا قبل لهم به، وإنه ملك عظيم وصاحب جلالة مقدسة، ولا يصح للعامة من الناس أن تذكر أسماء الآلهة والملوك إلّا بالألقاب الكبيرة وبالصفات العليا والتبجيل العظيم، وهكذا كان جلال الموت شنقاً يهيمن علينا بسلطانه.

نجحت تلك الإبر في رتق ملابسنا بطريقة كوميدية، إلّا إنها كانت مجدية وتفي بالغرض المطلوب، ونفعتنا أيضاً في خرم النوى الذي صنعنا منه مسابح بصعوبة ومشقة أكثر. كان علينا أن ننقع النوى في الماء لعدة أيام ليغدو هشاً، ونحاول في هذا الوقت تجفيف عظام الدجاج وجعله أصلب كي يكون ابرة في المستقبل القريب. المستقبل زمن طويل ثقيل يتحرك ببطء، كنّا نحاول اختراع ممارسات شتى للخلاص من ظله السمج، غير آبهين بالمنية التي تنتظرنا، وبالأحرى تجنباً للموت قلقاً فلم يكن بالإمكان تجاهل حضوره الدائم. تصالحنا مع العجين وبدأنا رحلة جديدة معه، فعملنا منه أحجار لعبة الشطرنج والداما، ونرد طاولة، وصارت أغطية علب اللبن قطع دومينو. في الأمسيات كنّا نتحدث غالباً في السياسة والثقافة، لأن تردد الحرس يصبح نادراً، ومع وجود بوابة حديدية كبيرة تفصل الزنزانة عن غرفتهم. كان اقتراب

أيّ واحد منهم حاملاً المفاتيح الثقيلة وهي تجلجل كالرعد يشكل صافرة إنذار وناقوس خطر مع صمت الليل وسكونه. أي مسعى للتسلل كان مصيره الفشل مهما بالغ صاحبه في التحفظ وكتم خطواته، إذ لابد أن يصدر صخباً وضجيجاً مسموعاً بشكلٍ كافٍ، مع يقظتنا حذرنا المتصل من تحركاتهم. صار النهار وقتاً لممارسة الألعاب واللهو، الذي لن نحاسب كثيراً عليها لو رصدنا بالجرم المشهود، أما الليل فهو وقت الأحاديث الجادة. لا يخامركم إحساسٌ خاطئ بأن الألعاب كانت مسموحة، أو إن صنع المسابح وغيرها كان أمراً متغاضياً عنه. أبداً لم يكن الأمر كذلك، كلها كانت تندرج في خانة المحظورات. إنما هناك ما تكون العقوبة عليه يسيرة لا يتعدى صياحاً وزعيقاً وكومة شتائم مع ضربات خفيفة مفردة من كيبلٍ أو هراوة وهذه أمور رتيبة يومية اعتدنا عليها، ولم نعد نأبه لها، لأنها صارت جزءاً من قوتنا اليومي.

14

شكّلنا حلقة دورية نتناوب فيها بإلقاء محاضرات كأن تكون استذكار كتابٍ كان قد قرأه المحاضر من قبل، أو في موضوع له إطلاع جيد عليه أو يتحدث لنا عما يملك من خبرة في أمر يجيده. مما ساعد في نجاح تلك الأمسيات واثرائها وجود أكثر من واحد بيننا يهوى المطالعة، لأن أغلب الموجودين كانوا من المتعلمين الجامعيين. أقمنا مباريات شعرية تنافس فيها أشخاص بارعون، وكان بيننا شاعر رائع ومثقف رفيع المستوى مهتمٌ بمطالعة الفلسفة ودراستها. كان يعمل مصرفياً قبل اعتقاله إلّا إن ثقافته ونجاحه الباهر في عمله الذي صيّره مديراً لأحد المصارف الكبيرة رغم صغر سنه (لم يكن يتجاوز الثمان وعشرين سنة)، لم يشفع له فيما بعد. لم تقدر مواهبه، بل العكس هو الذي جرى، إذ إن هذه المواهب الرائعة نفسها هي التي أودت به إلى مقصلة الإعدام مع رفاق آخرين له توزعوا في زنازين مديرية أمن الموصل. لم أتعرف عليهم، إذ لم ألتقهم أصلاً. كنت أسمع أصواتهم أحياناً حين ينادون عليهم للتحقيق أو وقت توزيع الطعام، أو عند السماح لهم بمراجعة دورة المياه.

حاولت حفظ بعض الأبيات الشعرية بلغات محلية غير العربية، لأننا كنا مزيجاً من قوميات مختلفة وخليطاً غير

متجانس من توجهات وأفكار متباينة بشدة أحياناً. كانت توحدنا قضية واحدة وهي مواجهة الظلم، والسعي إلى وطنٍ حرٍ خالٍ من الفاشية والدكتاتورية. وطن نعيش به بهناءٍ وسعادة، نتحدث فيه ولا نخشى من حائطٍ يسترق السمع الينا. وطن نفكر على أرضه وفي سمائه بصوتٍ عالٍ لا نخشى قطع رؤوسنا لأنها مارست التفكير بلا قيود. وطن لا يخوض مغامرات دون كيشوتية تسفك فيها دماء أبنائه من أجل إشباع هوى حاكم بقرار اتخذه لم يراع فيه منفعة لشعبه ولا استمع لرأيه. كان همّنا وحلمنا أن نحيا أحراراً نحن ووطننا. حلم أجهضه أعداء العلم والحياة من الطغاة والمستكبرين الجهلة الذين اعتلوا سدة الحكم في غفلة من الشعب وقواه الطليعية، وعملوا بمكر على استرقاق الناس وتجهيلهم.

الشاعر المصرفي يوسف الديوه چي كانت له قصة خاصة، إذ اعتقل بوشاية خائن ولم يكن اعتقاله علنياً، بل جرى اختطافه بكمين سري، لم يعرف أحد بأمره مطلقاً. قبع لأكثر من عام في إحدى الزنزانات المظلمة الانفرادية في القبو الذي سكنت فيه طوال فترة التحقيق. كان السلطات الأمنية توهم أهله ومن تعلق به بطرق شتى بأنه هارب خارج البلد وأنهم يبحثون عنه ويتحرون أخباره. كانوا يشيعون في مدينته أنباء عبر مندس خائن، بانه قد استقر في دولة عربية مجاورة، ويتسلل بين حينٍ وآخر عبر الحدود ويرسل رسائل من هناك.

كان الأمن يفبركون هذه الرسائل بطرق احتيالية بارعة. يطلبون منه كتابة مقاطع بحجة مطابقة الخطوط أو يسألونه أن يدون اعترافاته بنفسه، ثم يحورونها باحتراف لإيهام رفاقه بأنها قد جاءت منه للإيقاع بأفراد التنظيم. بعد ما يزيد عن السنة من التعمية عن مكان وجوده في القبو المرعب، تم إلقاء القبض على كامل المجموعة تقريباً واكتشفوا علة اختفائه حينما التقوه أثناء التحقيق. كان مظهره منفراً للغاية، بوجه أصفر شاحب بادي العظام، وبدا أنفه أكثر بروزاً بعينين غائرتين. نحيل يتقيأ دماً جراء مرض السل الذي أصيب بسبب عتمة وعفونة الزنزانة التي قطنها. كل شيء يوحي فيه بأن رسول الموت يسكن قريباً منه ويوشك أن يتم مهمته. لو تركوه لحاله فإن المرض حتماً كان سيسقيه الحمام، لكنهم أبوا إلّا أن يضعوا بصمتهم المقرفة على خاتمته فقتلوه شنقاً هو ورفاقه.

كان يحدثني هو ورفيق له في المجموعة التي اعتقلت لاحقاً له، عن العيش المر لأشهر عديدة في تلك الزنازين المظلمة، وكيف إن جروحهم بسبب التعذيب المتواصل والإهمال قد تقرحت. لم يجدوا من يداويها ولا كانت تبرأ للظروف بالغة السوء. كانت أشبه بلوحةٍ سريالية سوداء لا يتخيل أحدٌ إنها تحصل لإنسان، ومهما سمع عن وحشية النظام الدكتاتوري فإنه لم يكن ليصدق إنها تحصل. أسراب الديدان تستوطن المكان تعيش على جروح وقروح المعتقلين،

تمتص دماءهم وما من حيلة للخلاص من غزارتها. في احدى الزنزانات كان يُحْتَجز رجل يدعى علي أكبر يملك محلاً لبيع المجوهرات والحلى الذهبية، لا يشكو عوزاً مادياً، ولكنه كان معارضاً عنيداً للنظام الدكتاتوري. لم يكن يفعل ذلك لحاجة تنقصه أو لفقر يدفعه للثورة، بل كان معارضاً واعياً يطالب بالحرية ويرفض الدكتاتورية ويتحدى القمع والتسلط، لأنه إنسان ويريد أن يبقى إنساناً. كانت الديدان تعيش على قروحه وجروحه، ويتعامل معها برقة وحنان كما يفعل مع كل كائنات الدنيا لدرجة أقرب إلى الخيال. كان يشفق عليها حينما تسقط من بعض جروحه، فيلتقطها ثانية ويرجعها إلى محلها، وهو يناديها: كلي من رزقك. الخاتمة باتت معروفة، وأوشكت فصول حياته على بلوغ النهاية، فلماذا لا يساعدها على مواصلة البقاء من دمه. لم يكن يائساً ولا محبطاً كما قد يظن، بل كان على خلاف ذلك بالتمام. كان قوياً جداً بإرادته تحمل صنوف التعذيب بصبر لا يوصف. كان يتقبل السياط بصبر خرافي وهو ملقى على الأرض، كانت تنزل على جسده مثل شواظ لهب هاطلة من السماء فيما هو غير مبال يضطجع كأنه يستجم على رمال ساخنة. حفلة يومية تقيمها زبانية الجحيم تنتظر الإذن لبدء مراسم احتفال الآلهة بعذاب حريق العصاة مقترفي الخطيئة. صبره واستعداده للموت كان مدعاة له لأن يهب عمره لمن بعده، ولو كان من هوام الأرض أو ديدانها.

قصص حينما تروى لا غرابة أن تصف الناس رواتها بأنهم إما كذبة أو مجانين، لكن هذا الذي لا يُصَدْق قد حصل فعلاً، وحصل مضافاً له، أن رأس المصرفي البارع والصائغ مطعم الديدان قد قطعا.

15

كـان الاسـتحمام لا يعـدو عـن جـردل مـاء يسـكب علـى أجسادنا دفعة واحدة، وبطريقة مضحكة. كنّا نخرج كل اثنين معـاً إلـى دورة الميـاه، يجلـس أحـدنا لقضـاء حاجتـه بعـد أن يتجرد من ثيابه كلها، فيما يقوم الآخر في هذه الأثناء بملء جـردل مـاء ليسـكبه علـى صـاحبه. فـي غضـون هـذا توضـع الملابـس التـي يعتزمـون شـطفها فـي حـوض مغسـلة الأيـدي، وكنّا نحول دون تسرب الماء إلى المجرى بحشر أيّ شيء في فتحة التصريف، كي تأخذ الملابس فرصة كافية وهي مغمورة فـي المـاء. كنـا ننقعهـا دون أيّ مسـحوق غسـيل، بيـد انـه فـي بعـض المـرات النـادرة يصـدف وجـود بقايـا لقطعـة صـابون فنسـارع لاسـتخدامها بحكهـا بالثيـاب. سـرعان مـا اكتشـفنا المـأزق الـذي نحـن فيه مع انتشـار حكـةٍ تهـرش أجسـامنا في أماكن شتى. وجدنا أن خلف هذه الحكة أسراب قمل بأعداد هائلة تزاحمنا العيش، بل تعيش على دمائنا. هذا الاكتشاف كـان سـاعة الصـفر لخـوض معركـة مـع جمهوريـة القمـل لـم ننتصر فيها أبداً، رغم حجم الخسائر الكبيرة التي نوقعها فيه. لـم نجد من بد من الاشتباك بشكل شبه يومي ضد أسراب سوداء تتجمع في حواشي ملابسنا بصورة كثيفة تتغذى على ما تبقى لدينا من دماء.

كان للصراع طقوس خاصة، نتيجتها خلع كل ما نكتسي به بشكل كامل. نملأ بالماء أكواباً كنا نحظى بها من لبن خاثر يعطى إلينا في مناسبات متفرقة. ثم ننزع الملابس الخارجية وإبقاء الداخلية، ثم نعود لنستبدل الخارجية بالداخلية بعد الانتهاء من المرحلة الأولى أو قد يحدث العكس. تبدأ عملية الصيد التي نسميها (قصع) في جلسات طويلة نسحق القمل فيها بين أظافرنا عقوبة له لما ادخر في أحشائه من دمائنا المنهوبة. كانت أظافرنا تتسخ بدمائنا، ونحن نحسب أننا قتلنا عدونا، وهكذا هي المعارك الفاشلة. وأنا أرى مشهد القمل الصرعى، كنت أردد في داخلي وأحياناً نادرة بصوت عالٍ: دمٌ مسفوحٌ اليوم من رقاب القمل، وغداً يسفح من رقابنا. هذا المنظر كان يزيد الاضطراب عندي، ويفاقم الحزن والأسى في داخلي جراء هزيمتي التي لم أستطع تجرعها لتسعة شهور كاملة. كنت ثملاً من حزني وكلما صحوت قليلاً منه أذهب إليه ثانية مثل سكير لا يقوى على هجر عادته الرذيلة في إدمان الخمر حتى الثمالة. الحزن يسحقني سحقاً، وبات الناظر لي يظنني شخصاً متثاقلاً مثل عجوز هرم. رأسي يترنح وأعضائي ترتجف، بل جسمي كله يرتعش من غير مناسبة. أختلي غالباً مع نفسي وادندن بهمس من غير توقف، أجادل نفسي في كل شيء، اعتقدت بإني سوف أصبح في القريب العاجل مجنوناً من فرط الأسى. رغم الضجيج الذي كان

يسببه ازدحام ساكني الزنزانة من البشر، والبعوض الذي لا يتوقف طنينه، إلا أني كنت أعيش وحيداً منعزلاً. عزلتي لم تمنع مساهمتي في النشاطات التي كانت تجري، وعلى كل حال فإنها كانت محدودة. عزلة النفس، والتفكير بتكتم كان أشبه بنزيف داخلي لا يراه أحد، لكن ألمه كان يُرهقني كثيراً. انعكس أثره في هيكلي النحيف، فازداد اضمحلالاً، وتوغل المرض فيه كثيراً. لم تفلح المواساة التي كنت أسمعها من بعض رفاقي في إيقاف تدفق مشاعر التشاؤم، ولا من حزني الذي ضجت به روحي وفاض منها. بات البعض منهم لا يخفي شعوره أو لنقل توقعاته بأن الموت قادم إليّ أسرع من أوان ورودي المقصلة.

كنت أتأمل القمل صريعاً سابحاً في الدماء، وأسأل نفسي، من ذا الذي يمنحني الحق في سلب حياة كائنٍ وتحت أيّ عذر فوضت نفسي بفعل هذا؟ هل هي رغبة مشروعة في اللهو لأني أمتلك قوة باطشة لا تملكها الضحية؟ هل لكل ذي قوة الحق والمشروعية لدق عنق منافسيه، وسحق من يتحرك بغريزته نحو ما يعيش عليه، فقط ليبقى حياً ولا يطمع بأكثر منه؟ وهل يملك القمل من خيار غيره لجمع زاده اليومي حتى أعده معتدياً؟ معركتي مع القمل هي المعركة نفسها التي يخوضها البشر فيما بينهم، تتغير فقط الأسماء والعناوين. كل يبحث عن سبب يبرر بها فعله الشنيع. طرف يملك القوة،

ويزعجه وجود كائن أضعف منه بجواره، مع أنه لا يطلب سوى العيش كما جاء لهذه الدنيا، وهو امر لم يكن له من خيارٍ فيه. هذا الحق الغريزي في الحياة يثير القوي فيقود حملةً دعائيةً ضده، ويعده كائناً معتدياً ضاراً. تتحول الدعاية إلى تنظيرات فكرية، بإن هذا كائنٌ أدنى مضرٌ يجب سحقه وإنهاء حياته، وينبغي ان يشتت جمعه ويباد هو ونسله ليعيش العالم بسلام، ولكن هل يبنى السلام بالقتل والدماء؟

كنت أكرر في حوار داخلي إن قوتي التي أسحق بها هذه الأسراب سوف تزول قريباً، لأن ما أحسبه وحشاً ينتظر قطع رقبتي هو عين ما ينظره القمل لي الآن. سوف يمارس ذاك الوحش معي عين ما افعله الآن مع القمل. إن ظلم القوي الذي يثير الاستياء عند الضعفاء ليس في واقعه كما يبدو عليه، فإحساسه بعظمة شأنه وعلو مطامحه يجعله مطمئناً مرتاح الضمير، حينما يمارس فعله. نحن الآن القاطنين في الزنزانة جميعاً، نحس أن الفارق كبير جداً بيننا وبين القمل وأي من الهوام والدواب ضئيل الحجم، فنقتله دون أي شعور بالذنب أو بشيء من تأنيب الضمير، بل وفوق ذلك نفعل هذا ونحن نضحك ملء الشدق، ونعده ليس لهواً وحسب، بل إجراء ينبغي القيام به بلا أدنى مراجعة للنفس.

ما هو معيار الأخلاق لدى البشر؟ لماذا لا نتأثر لو دهسنا نملة. لم أسمع أحداً يتعاطف مع نملة نصحت صويحباتها من

بطش جيش سليمان، ولكنهم كلهم معجبون بقوة سليمان وصار عندهم حكيماً مع أنه توعد الهدهد بالذبح بمجرد تغيبه عن الحضور في ساحة جلالة ملكه. يقولون مات مثل الحيوان، أليس الحيوان له حياته وروحه التي يحرص على الحفاظ عليها؟ كم هو غريب أن نطعم أسداً جائعاً لحم حمار ونتعاطف مع الأسد الجائع ونمتدح من قدّم له الطعام لأنه أنقذه من الجوع، ولكن لا أحد يفكر بالحمار المسكين الذي صار مجرد قطعة لحم فقط، مع أنه مطيع لا يريد أن يخلق المشاكل. نحب القط الشرس ونعادي الفأر الضعيف، فقط لأن النساء الرقيقات يخفنه، مع أنه لم نسمع في التاريخ كله أن فأراً قد صفع امرأة كما يفعل معها رجل بذلت كل الحيل للعيش معه، لتتلقى في الآخر موجات غضبه وعصف مزاجه المتعكر. كم هي الحياة معقدة للغاية، وفهمها لن يقل صعوبة عن فهم الموت نفسه وما بعده.

هذه الحوارات دفعتني على تجنب قتل القمل بالقدر نفسه الذي كنت أخشاه وأمقته حتى أضنتني الشفقة. مصيري الماثل أمام عيني ليل نهار جعلني أتعايش معه وأقبل حقه بالبقاء؛ لذا بدلاً من قتله سحقاً كنت أنقله إلى داخل كوب ماء مملوء ليهلك غرقاً. طريقة بلا شك أنها سخيفة، لأنها كانت أقسى كنت أحاول خداع نفسي وتبرير عملي. سفسطة وهذيان أم صحوة ضمير كانت تذهب بي في أعماق نفسي لم أع

وجودها من قبل، وتنتهي إلى سلوكٍ غريب، ربما لا معنى له، لكنه كان يعكس حيرتي وتيهاني، أو إعادة بناء شخصيتي وأفكاري. تصرفات غريبة تعكس البلبلة والتشتت الذي كنت أعيشه، فمحاولة الفكاك من تأنيب الضمير من جريرة قتل القمل بفلسفة كانت تبدو أشبه بأحاديث جنون مبكر. فلسفة أقرب إلى العبث والسفسطة، إلا إني بسببها ما عدت قادراً حتى على اعتراض نملة صغيرة تسير إلى جوار حائط في سرب مع رفيقاتها. أضحيت أنظر بأسى مبالغ فيه إلى خنفساء سوداء تسير إلى مبتغاها وتتقلب على ظهرها فجأة ثم لا تقوى على الاعتدال، فأهب لمساعدتها على النهوض ثانية بعناية وحنان. كنت أتشبث بالحياة بحياة غيري وأكثر ما كان يضايقني هو تلك الرغبة الغريزية في قتل الهوام حينما تسري على جسدي. كان يراودني شعورٌ لم أتخلص منه مقترناً بكآبة غير عادية أحس معه بإني جلاد متنكر.

16

في أحد الأيام، حشر معنا عدد ضخم فجأة. لم نفهم سبب هذا الإخلاء الشامل والمفاجئ، وإن توقعنا أجمالاً وصول وجبة جديدة من المعتقلين السياسيين لا يراد لهم الاختلاط مع من أكمل التحقيق من مثلنا لدواع أمنية، إذ قد تنقل إليهم خبرتنا في التعامل مع المحققين. طال ترقبنا لتفسير هذا الحدث، إذ كنا نتوسم بهذه الأحداث ما يكسر رتابة أيامنا المتشابهة لنمنحها جرعة من الحياة. سمعنا صوت المفاتيح الثقيلة تقرع بحقدٍ من بعيد في طريقها لفتح باب الزنزانة المجاورة لتبتلع ضحية جديدة. ضحية لم نكن بحاجةٍ إلى عناءٍ كبيرٍ لنكتشف جنسها، فصوتها الأنثوي دليل عليه. ترنيمة تتردد صباح مساء في وسائل الإعلام الحكومي عن الماجدات والحرائر، وعن حفظ شرفهن من الأعداء والغزاة، ولا يفتر مناضلو الحزب على تذكيرنا بها في كل مناسبة. وها قد جاء اليوم الذي نختبر شرفهم في دوائر الأمن الثوري. في المساء، جاء حماة الحرائر وصائنو أعراضهن، بكل قيافتهم وهمتهم وذهبوا بها هناك، إلى الطابق العلوي إلى حيث ذهبنا من قبل لتبدأ فصول حكايتها.

على الرغم من كل الذي حصل لنا، ومع مرارة تجربتنا إلّا إننا كنّا نأمل بأن تحظى بمعاملة أفضل من التي أذاقونا

إياها. إنها أنثى وامرأة شابة ورجال الأمن في البدء والمنتهى شرقيون مثلنا، وسيمنعهم الحياء وشيمتهم القبلية العربية من ارتكاب أفعال مخزية. سوف يعاملونها بالتأكيد على أنها كائن ضعيف الجسد، بما إنها امرأة وإن كانت سياسية، ولو اضطروا لمعاقبتها فسوف يكون من جنس التعذيب العادي المتوقع إنزاله بأي معتقل. لم نكن نطمع بأكثر من هذا لها، لم يكن هذا توقعاً واقعياً، بقدر ما كانت أمنية ساذجة، من نفوس لم تتعرف بعد إلى أيّ مدى يمكن أن تصل إليه البهيمية في المخلوق البشري وهو يواصل ركوب عربة الانحطاط. تمنينا لها ليلة لا تسبح فيها عاريةً في الفضاء معلقةً بأحد السقوف كما فعلوا بنا. لم نكن نجرؤ حتى في أحلامنا الوردية لا في يقظة أو في منام أن نبعد الهراوات عنها، لأننا كنا على يقين إن الركل والصفع زاد يومي، ولن يُمْنَع عن أيّ أحد مهما كان عمره أو جنسه. إنما لم نتخيل أبداً في الوقت عينه أننا كنا نختزن حلماً سخيفاً ستبعثر أشلاؤه حين تندُّ صرخات شابة بموته. يافعة عشرينية ما عرفت لها اسماً ولا عنواناً إلّا كونها كائناً اختارت أن تكون إنساناً، وقررت أن تفكر بحريةٍ ممنوعة في بلد تزدحم فيه الممنوعات أكثر من ازدحام القمل على ياقاتنا.

قامةٍ متوسطة مثل سائر النساء، ووجه أسمر حنطي يتراوح بين استدارة واستطالة قليلة يميل إلى التفتح بخدين متوردين

رغم أنهما مشوبان بالخوف ويغطيهما وجوم كبير. يلتف على جوانب رأسها الصغير شعر اسود فاحم ينسدل بنعومة إلى حد الكتفين تقريباً ويتجاوزه قليلاً. هذا كل ما حشرته في ذاكرتي بنظرةٍ متلصصةٍ لكنها طويلة أكثر من المعتاد سرقتها عبر كوة الزنزانة وهم يقتادونها إلى غرفة التعذيب. عرفت فيما بعد من بعض الحراس الأمنيين الذين عقدنا معهم صداقات دردشة بسبب طول الإقامة إنها عذبت مثلنا بالضبط. رواياتهم كانت واقعية رغم أنها تحمل المبالغة والكذب في أكثر الأحيان، وهو امر يستدعيه طبعهم الرديء. صيحات مرعبة شقت سكون الليل كهزيم الرعد نزلت علينا كالصاعقة من فوق عدة طوابق تحرق كل برعم للحياة فينا. صرخات قدّت من الأسى رشقتنا بسهام أقوى من الفولاذ وأرهف من السيوف البتارة. صدعت أركان قلوبنا، فأنصتنا لها خاشعين، لا نجرؤ ان ننبس ببنت شفة. نغيب في الصمت كأنما الطير يقف على رؤوسنا، وتتجمد مآقينا عن ذرف الدموع، كل شيء يصبح بارداً كالأجساد الفانية. لا نجسر على النظر إلّا إلى أسفل، إلى ما تحت أقدامنا حيث يسكن الذل والهوان. تتوسل رحمة ورأفة من قلوب أقسى من الجدران التي حبست فيها. كانت تنادي السماء أن تغيثها وتفك كربتها، لكن أصابها الصمم كما أصاب الكون كله، ونحن أيضاً كنّا نحشو آذاننا بإغماض عيوننا وإخراس ألسنتنا. العجز والعار يكلل رؤوسنا ويظللنا

بكومة من سحابه الثقيل في دهشة مما يجري ويركبنا إحساس هائل من الضياع، والعدم، والخواء الكامل. خواء لو قرعت فيه طبول الاحتجاج كلها فلن يسمع لها صوت ولا صدى. مشاعرٌ غطسنا فيها وانتحرت على عتبتها خرافة من كم الخرافات الهائل التي كنا نأمل أن يكون لبعضها وليس لكلها نصيب ضئيل من الصحة أو حظ يسير من الحقيقة. لو كان لذرة رمل تطيح بها رياح خمسينية أيّ أمل في الثبات بين الكثبان، لكان لخرافة القبيلة التي تصون أعراض النساء حينئذ فرصة للنجاة بعد هذه الحادثة المروعة.

حرائر وأعراض ماجدات وقبيلة تفخر بأفرادها ولو كانوا يملؤون المقابر، وحضارة سبعة آلاف عام، ودين سماحة وعفة وشيمة وغض الأبصار وعروبة وسخافات كثيرة كلها انتحرت، لأني لست جريئاً بما فيه الكفاية للقول إنها لم تكن حية في يوم من الأيام لتموت الآن. أساطير لا أصل لها سوى أوهام كبرياء أجوف في وطنٌ يعشق وأد الحرية، ويقتل كل من قرر أن يختار إنسانيته باسم أشياء كثيرة، دين، شرف ومبادئ الحزب والثورة. صديقتي التي لم أتعرف عليك ولم ألمح من صورتك ولا قوامك إلّا نزراً يسيراً كان كافياً لأن يُنقش في ذاكرتي أبداً، كما ينقش على الحجر. صديقتي التي لم أرك تسيرين على أرض بلدي إلّا وأنت مكبلة بالقيود تحيط بك ذئاب مفترسة جائعة شرهة لشرب دم الضحايا،

أقول لك ولصديقاتك اللواتي سمعنا بقصصهن. إن شرفك وعفتك هي عشقك للحرية الذي صارعت به الوحوش الكاسرة، وبه انتصرت عليهم. أنت ما زلت خالدة في قلب وعقل كل من مررت به، ويفخر بمعرفتك حين يذكرك أو ساعة يروي قصتك. أما هم فيكفيهم من العار إنهم لا يجرؤون على ذكر أفعالهم معك، ويشعرون بالحرج من قصتك. أراهن إنهم يخشون ذكرك ولو كانوا يضطجعون في مخادعهم مع زوجاتهم، ويخشون من ظلالهم ان تسمع بما فعلوا، فهل هناك من خزي يطاردهم، بل يلصق بهم أكثر من هذا العار؟

17

دلف إلينا في نهار شتوي بجسمٍ ضئيل، وذقن كث، وسذاجة مفرطة تغذيها براءته. يتكلم بلغة لا نفقهها ويعتنق ديناً غامضاً غريباً على مسامعنا لا نعلم عنه إلا اسمه ونجهل تفاصيله مثل كثير من الناس. بعد أن أخذ وقته في استيعاب وحشة الغربة راح يحدثنا بحماسة عن أسلافه العظام وعن حدة سيوفهم ورهافة نصالها التي حصدوا بها الأعداء، كما كان يحصد سنابل القمح في أرض الجزيرة. كان يحفظ أسماء سبعة أجداد بالترتيب لأحد أبطال حكاياته، وحينما كنّا نسأله عن أسماء آبائه، لم يكن بوسعه تجاوز ما هو أبعد من جده الثاني إلّا بمشقةٍ وعناء، ويبقى متردداً كثيراً في تأكيد صحة جوابه إن تعدى جده الثالث، يتلكأ كما لو أنه يتعذر الوصول إليه ثم يقر بجهله في الختام. كان الرجل يعيش في ماضٍ موهوم، يجهل حاضره ويتمسك بأساطير وخيالات ينسبها للدين. يظن، لا بل كان يجزم بأنها حقيقة لا ريب فيها. يحسب أنها محض خير وومضة جمال لن يجود الزمان بمثلها، أما الذي سوف يجري بالغد له ولأطفاله ولأجيال لاحقة لهم، فكانت عنده قصة مفككة متشظية الأجزاء، لا تماسك فيها ولا تكامل البتة. كان الرجل بما يختزنه من بساطة ووضوح في مشاعره وأحاسيسه أنموذجاً لنوع ليس

بغريب عن بيئتنا من قبل ولا من بعد، بل هو النوع الأكثر شيوعاً. يمثل في طريقة تفكيره ومعيشته ومعتقداته نوعاً يتجسد بمظاهر شتى، ولكن بلب واحد. لب هو أصل وجوهر مشكلة حقيقية وعقبة كأداء لا يقوى الكثير على ارتقائها. أنموذجٌ يخال الأوهام التي يحملها بظلمتها التي يعيش فيها، أنها سقف العالم ونهاية المعرفة، وما من شيء بعدها إلّا الهلاك والخراب والضياع وغضب الآلهة والسماء التي تحتويها، ولا يدري إن الهلاك الحقيقي يكمن بالبقاء فيها لا في مغادرتها. أما متى سوف يجرؤ على اقتحام ممنوعاته؟ فلا أحد يدري، لكنه إن عاجلاً أو آجلاً سوف يدرك أيّ ذنب أرتكب بحق نفسه وسيكون على الأغلب قد فات الأوان لإصلاح ما أفسده الزمان. قصص الرجل القصيرة في سردها، الغريبة في أحداثها وفي المعجزات الخيالية التي تأتي بها شخصياتها الأسطورية، كسرت بعضاً من الجمود الذي نعيشه وأحدثت خللاً في الروتين المهيمن علينا لطرافتها. كان الرجل طيباً إلى حد الإفراط، لم يلامس جسده ماء لا بارد ولا دافئ منذ دهر بعيد، لأمر من وحي دينه. كان يحمل مع طيبته المبالغ بها رائحة غالى فيها إلى حد يبعث على الغثيان. وهكذا يفعل إرث العقيدة الفاسدة بالإنسان ان أخذها بلا تعقل، وسار بها وراء القطيع، واتبعها بلا نظرٍ ولا تدبر، وأسلم نفسه لأصنام تدعى زيفاً أنها ظلال لإله يحتجب

وراءها.

مع إنّا كنّا نتحمم بطريقةٍ مضحكة، وتفوح رائحة ثقيلة من أجسادنا هي الأخرى، إلّا إنّا لم نستطع رغم ذلك تحمل رائحته التي كانت عفونة حقيقية. كان علينا أن نفكر بطريقة للخلاص من هذا الورطة. الملاحف القليلة نتقاسمها بحرج في المنام وإن كنّا حصلنا على بطانيات إضافية قبل فترة قصيرة، إلّا إن هذا لم يغير من أن يكون شخصان تحت بطانية واحدة هو ذروة في الرفاهية التي ننعم بها حينما يتقلص عددنا، أما الوضع الطبيعي أن يكون العدد أكثر، مع أن أغلبها كان يكفي نفراً واحداً فقط. سؤال ملح صار يتردد، من ذا الذي يقدر على مشاركته بلحاف واحد؟ انتهى بنا النقاش إلى قرار عدم محاولة تجربة مساكنة الرجل ولا لليلة واحدة. كان قراراً عسيرا فأن يعطى بطانية وحده مستقلاً مع قلة عددها وكثرتنا، شيء فيه مشقة غير قليلة. كان علينا أن نتحمل جرعة إضافية من البرد ونقبل بضيق المنام. هذه هي ضريبة قرار التعالي أو الاشمئزاز، فهكذا يكون مجرى الأمور كلما رُفض خيار، تزداد الحياة مشقةً وصعوبة مع هذا الاستثناء، فانتقاء الأفضل وانتخاب الرفاهية له محصلة تتبعه، وهو قرار شخصي ليس من العدل ولا الإنصاف التذمر أو إلقاء اللوم على غيره.

أُنْتُدبت مع شخص يتكلم بلغة مشابهة لإبلاغه القرار

بطريقة سمحة لا تؤذيه، متجنبين الإشارة والتلميح إلى الدوافع الحقيقية الكامنة وراء هذا القرار، لأن الجميع بالفعل أحبه منذ اليوم الأول بالمقدار نفسه الذي مقت رائحة جسده، بل وأكثر. أخذنا نحدثه عن أهمية الصبر في هذا الموقف الصعب الذي يمر به، وإن الفرج قريب ولن يطول به الوقت كثيراً حتى يعود ثانيةً إلى مرعاه ومزرعته، وسوف يواصل حياته الوادعة المسالمة من جديد بعيداً عن هذا الحال التعس. سارت بنا المحادثة رويداً من الواقع الجديد الذي دخل فيه إلى ضرورة تجربة التكيف معه، وبأن لا طائل من التذمر والضجر، فإنهما لن يحلا معضلة ولا يفكا عقدة. ثم قلنا له إننا مع ذلك ننظر بعين الاعتبار والتقدير لانتقاله المفاجئ لهذا العالم الصعب وتهويناً منّا لهذا الوضع إلى أن يألفه واحتراماً لكبر سنه (كان أكبر من أسننا بما يقارب عشر سنوات وربما أكثر)، نقترح عليك أيها السيد المحترم أن تنفرد وحدك بالمنام في بطانية واحدة. ارتسم الامتنان على وجنته المتغضنة، وعلى تجاعيد ملأت وجهه الأسمر مبكراً صنعتها شمسٌ لافحة لم ينفك عن مواجهتها بحكم مهنته. لمع بريق شكر في عينيه لعثم خطى كلماته وأربكها كثيراً، وفقد الإحساس بالغربة. انقشع الحزن، واندثرت غيوم الأسى من عينيه بعد أن قدمنا له ماءً وبقايا طعام كنّا نحتفظ به للطوارئ. كان تقديمنا لهذه الوجبة الاستثنائية وبعناية خاصة فعلاً أبهجه

للغاية. حرصنا في الأيام التالية أن نقدم له الطعام بإناء خاص له، ونجنبه المشاركة في بعض الأعمال اليومية التي كنّا نقوم بها من تغيير سطل الماء أو غسل الأواني، وعلى الرغم من سهولة هذه الواجبات إلّا أن عدم مشاركته فيها أشعره بمقدارٍ الاحترام الكبير الذي نكنّه له، وحجم مشاعر العطف والمواساة التي نوليها له.

التهمة الرئيسة التي وجهت له إنه يعرف بعض من كان يحرك جمر الحرية في قريته الصغيرة. لم يكن الرجل يفهم فحوى كلامهم، ولا تهمه هذه الأفعال لا من بعيد ولا قريب. بعض المطلوبين كانوا من أقاربه أو من سكان قريته، على الرغم من أن هؤلاء الثوار لا يرتبطون بعلاقة مباشرة معه. المضحك المبكي أن سكان القرية التي ينتمي إليها كانوا كلهم من عشيرة واحدة تقريباً. ولذا تهمة كونه من العشيرة او العائلة نفسها ليست تهمةً سخيفةً جداً ومضحكة ولا قيمة لها وحسب، بل إنهم كما يبدو كانوا يريدون استئصال هذا المكون من الخارطة لأنه أعلن التمرد عليهم. وما عجزوا عن فعله يومئذ فعلوه لاحقاً يوم اجتاحوا الموصل بجيوش الهمجية وكادوا أن يبيدوا شعباً بأكمله، وارتكبوا فضائح وجرائم سوف تذكرها الإنسانية كثيراً ويدونها التاريخ بحبره الذي لا يمحى.

كانت أفكار الرجل ما بين فوضى وسراب لا تتعدى عن

محاولـة للعـيش بسـلام وأمـان هـو وأغنامـه، دون أن يعكـر صـفوها عـواء الـذئاب. حـاول ضـباط الأمـن ومسـاعدوهم أن يستدرجوه بوسائل شتى لينتزعوا منه معلومات لا يملكها، ولا كـان بمقـدوره أن يفقـه شـيئاً مـن أسـئلتهم الأمنيـة والسياسـية. يمكن القول إن قرار اعتقاله غبي بامتياز لو كان الهدف الفعلي منـه الحصـول علـى معلومـات أمنيـة، ولكـن يبـدو أن الهـدف الحقيقـي منه كـان إثارة الرعـب في القريـة أكثر مـن الحصـول علـى إخطـارات عـن المتمـردين علـى النظـام مـن سـكنة هـذه القرية. التحقيق معه محاولة عبثية وربمـا كانوا يراهنون على ضـربة حظ قد ينالون بهـا شيئاً لـم يكـن في الحسبان. حـاول الأمن مغازلة الرجل حيناً وفي حين آخر كانوا ينقلبون عليه ليبصـقوا كـل أنـواع همجيتهم والغضـب الوحشـي المسـتوطن فـيهم، وفي كـلا الحـالين لـم يقـدم لهـم سـوى صـمت محشـو بأنين وآهات، وإجابات هي بمثابة أسئلة تبحث عـن جـواب. لـم يكـن الرجـل يـدرك أبجديات المعارضـة، بـل لـم يسـمع بهـا أصلاً ولا يعرف عمّاذا يتحدثون. لـم يكـن سـوى راعـي أغنام، ويزرع الحنطة حين تجود السـماء علـى أرض الجزيـرة بالغيـث لا أكثر مـن هـذا ولا أقل، مهمـا حـاول المتحـذلقون ان يغيـروا من هويته. بعد أن أيقنوا إن ما يبحثون عنه، مـا هـو إلّا مطـاردة للسـراب، وإن الرجـل أخـذ مـن العقوبـة مـا يكفيـه، وسـوف يحدّث بها كل أبناء القرية، فلا يجسر أحدٌ بعدها على تقديم

أيّ عونٍ لثائر ولو كان ذلك العون وجبة عشاء ليس أكثر، حسمت دائرة التحقيق أمرها ونبذته في الزنزانة. لا أحد يسأل عنه ولا هو يدري ما المطلوب منه ولا يعرف مصيره. كنّا نلاطفه كثيراً ونستخرج منه ألوان البراءة. كان يقهقه بملء شدقيه ويخرج ضحكاته من أبعد نقطة في قلبه الأبيض. حينما كان يتألم من سياطهم أو من إهاناتهم التي يوجهونها لمعتقده، وديانته العنصر الأهم عنده، كنّا نبعث فيه الأمل بكلمات الحماسة. كانوا يتسلون بعذابات غيرهم، وأحياناً يبحثون عن شخص يصبون جام غضبهم عليه بإنزال المهانة والذل به، لمجرد أن يومهم كان سيئاً. "أنت لست وحدك إن أجدادك الأبطال ينظرون إليك من جناتهم العالية ويراقبونك فلا تخيبهم". بمثل هذه الكلمات كنّا نواسيه، ونؤازره، ونقدم له الدعم، لأنه لم يكن في حيلتنا شيءٌ أكثر نقدمه له. كنّا نبشره بأن الفرج بات قريباً جداً منه؛ فليبتسم لمقدمه وليزيح التكشيرة من وجهه التي خلفها هؤلاء التافهون السخفاء. بعد أن أكثرنا له من التطمينات عن فرجه القريب، ظنّ أننا ننتظره مثله فسألنا يوماً عن موعد فرجنا متى يحل بعد أن صلى لأجلنا. رددنا على سؤاله ضاحكين مبتسمين: "إننا سنغادر هذا الباب ونترك الألم والأحزان وراءنا في هذه الدنيا، ونذهب هناك إلى مقر الراحة الأبدية". اغتم كثيراً لأنه لم يكن يتوقع هذا الرد والنبأ المشؤوم، غير أنّه ازداد قرباً منّا وتعاظم

ودّه لنا. صار الذي بيننا ليس محبة علاقة طارئة، بل إنها محبة إخوة لا تدرس مهما تعاقب الزمان عليها، توثقها عرى صداقة لا تضمحل وآصرة إخوة لا تفنى.

في مساء قرروا أن يرجعوه إلى مرعاه الذي أخذوه منه، وكدأبهم حينما ينوون إطلاق سراح أحد ما، فإنهم يحاولون استرضاءه بإبداء مرونة في التعامل معه، ولم يشذوا عن طريقتهم معه فأعطوه علبة دخان.

- إنها لا تكفي، قال لهم.

- لا تكن طماعاً ستغادر بعد يوم واحد فقط، هكذا قال له ضابط التحقيق.

- أنا لا أتحدث عن نفسي، إنها لا تكفي أصحابي الذين معي.

- خذها واتركهم أنت لا علاقة لك بهم.

- لا أريدها، أما أن تعطهم مثل ما تعطني أو لا أريد أيّ شيء منك.

كلمة لطمه بها، لكنها حركت الإنسان في قلب هذا الجلاد وانتفضت الفطرة فيه وأزاحت القسوة عنه بشكل مطلق في تلك اللحظة.

نزل إلينا الضابط ووقف أمام باب الزنزانة مذهولاً يحدثنا.

- ماذا فعلتم بالرجل؟

جاءنا الجلاد هذه المرة إنساناً قد هدّه التعب، ونبتت في قلبه من جديد زهرة الإنسانية النائمة. أتى يحمل إلينا بيديه المجردتين من أدوات التعذيب كثيراً من علب الدخان، وأكثر منها قهقهة صادقة واعتراف لاحب أبلج بالهزيمة. أصر أن يأتي بنفسه ليقدم لنا علب السجائر بيديه مثنياً على تعاملنا الإنساني مع الرجل ومعلناً إعجابه بنا. وقف أمامنا ذليلاً منكسراً بعد أن حطمت كبرياءه موعظة القروي الساذج ولقنته درساً بليغاً في الشهامة والمروءة. موعظة جعلته يعترف بأن أواصر الإنسانية أقوى من الأسلحة التي يملكها هو وامثاله من الجلادين والطغاة.

18

في مساء شتوي بارد طُلب منا الاستعداد لمقابلة مهمة مع مدير أمن نينوى وهو شقيق جنرال عسكري كبير معروف اسمه (هشام صباح الفخري). أرادوا أن يتخلصوا من رائحة أجسادنا الكريهة كي لا نعكر حاسة شمه، فسمحوا لنا بالاستحمام بشكل جيد لأول مرة. أسدونا فرصة لترتيب ما فضل من هندامنا الذي باء في شأن لا يمكن أن يصلحه أشطر دراز في المدينة. كثيرٌ كان يعول كثيراً على هذه المقابلة، واستعد للانتفاض أمام مدير المعتقل بإنكار التهم المنسوبة إلينا. كانوا يرومون القول له صراحة إن هذه إفادات مزيفة انتزعت تحت تعذيب جسدي ونفسي، وكأنه لم يكن يعلم بهذا. كنت أشعر بعدم اكتراث، ولم أعول على هذا الحدث المرتقب بأي أمل، ولم يشكل أية أهمية عندي ولا اعتبار بالمرة. تعاملت معه بلا أبالية منقطعة النظير، لأني كنت أعيش حالة يأس تام من تغيير ما يجري، وتملكني في الوقت عينه شعورٌ مريرٌ بالهزيمة، وبأنه لم يتبقَ إلّا نزر يسير في مساحة هذه الدنيا التي ضاقت جداً وأصبحت بحجم حبة رمل. كنت موقناً بأنهم يريدون قتلنا عن ترصدٍ وسبق إصرار، ولا يخفى على أيّ واحدٍ منهم حجم الظلم الذي تعرضنا له أو مقدار الهمجية والوحشية التي عوملنا بها. كانوا مواظبين على هذا

المنهج المقصود من الإيذاء بشكل نمطي. ويتحينون الفرص لدفع مركب حقدهم على الإنسانية في بحر شقائنا ودمائنا. إذن كيف لي أن آمَل من مجرم، بل من كبير إجرامهم أن يكون منصفاً وعادلاً ويصير محلاً لشكوى مظلوم؟ رأيته منطقاً غريباً في التعامل مع الوقائع، وكنت أشبهه بمسعى مغفل يدفع شر الشيطان بالاستعانة به. أنها سذاجة مفرطة وحماقة كبيرة وغباوة منقطعة النظير أن تهرب من الظلم إلى الظالم هكذا قدرتها وحسبتها، وفي الوقت عينه كنت ألتمس لأصحابي عذراً في داخلي، إنهم غرقى والغريق يبحث عن قشة، وهل نسيت أحلامي يوم كنت أتلقى التعذيب؟ إنها كانت حمقاء هي الأخرى، وسخيفة بالقدر نفسه أو أكثر.

راودني شعورٌ من الكبرياء والتعالي مستنكفاً أن اطلب من هؤلاء المجرمين شيئاً. رأيت والدي لا يذل نفسه، ولا يطلب من أيّ أحد شيئاً، وفي يوم امتنع عن التدخين نهائياً، فقط لأنه في غفلة طلب سيجارة من صديقٍ له بعد أن نفدت سجائره، فعاقب نفسه لأنه رأى في هذا رخصاً منه وذلة. لا ينبغي لي أن أُنزلَ نفسي موضع الذلة ومنزلة الإهانة أمام هؤلاء الذين لا يليق بي أن أتحدث إليهم أصلاً. لا يليق بي التفكير في سري بالتوسل إليهم، فكيف بالطلب منهم أمام الشهود؟ الموضع الصحيح لمن هو مثلي هو مقارعتهم والاصطدام بهم، وليس مهادنتهم. لا يجدر بي أن أترجاهم ولا أن أنتظر شيئاً منهم،

ولو كان ذلك الشيء خلاصي من سجونهم. الحرية والحقوق تؤخذ بالنضال والصراع، ولا تعطى منحة من أحد، أيّاً كان محله وموضعه ومنصبه في كل هذا الكون. الكسالى والأغبياء ينتظرون السماء تمطر رزقاً لهم، أما الحاملون لمسيح الطهر حتى في يوم ضعف الولادة يهزون جذع النخل يستمطرون ثمره، وهل يهز النخل إلّا الأشداء؟

مثل قطيع بائس ينتظر حز الرؤوس قابلنا مدير الأمن كلٌ على انفراد. سألنا أسئلة عادية لا تنم عن أيّ اهتمام. بدت الزيارة كأنها الإمضاء الأخير على مكافأة ينالها فريق التحقيق ثمناً لجهوده في تسليم رقابنا إلى جزار المسلخ، إلّا إنه ورغم هذه الأجواء المزيفة المخادعة بتعامل دبلوماسي هادئ ناعم طرح به المدير أسئلته الباردة الخالية من الروح، فإن النيات الخبيثة كانت سافرة تفضحها نظراته الماكرة التي تبادلها مع ضابط التحقيق. وكما كان مقرراً فقد شكا البعض منّا الظروف القاسية التي دفعته لتقديم إفادات مزيفة، ومع كل الشفافية المدعاة إلّا انه هذه الشكوى الفارغة لم تنل رضاه ولا رضا ضابط التحقيق (عبد العظيم). تحولت المقابلات من لقاءات منفردة مع المدير إلى لقاء ثلاثي بحضور ضابط التحقيق لكبح هذه الجرأة على الإنكار ومنع تكرارها ثانية. بالطبع لم يتغير أيّ شيء بعدها كما كنت واثقاً ومتيقناً من قبل، ومع هذا لم يغير ما حصل من هذا العرض المسرحي الهزيل في

سخافته من قناعة البعض الذين كانوا مصرين على إن هذه فرصة كان يجب استثمارها. اختلفنا في تقدير ما جرى بحوارات ونقاشات لم تخل من عتب، بل تقريع، وفي بعض النوبات كانت تحمل لي تلميحاً بيناً، بل تصريحاً بالجبن والضعف، مع أنهم كانوا يعرفون إلى أيّ حد تحملت التعذيب. كنت واحداً من أكثر الموجودين ممن صمد بوجه التعذيب والتحقيق إلى آخر المطاف، إذا لم أكن فعلاً الأكثر صبراً على التعذيب بينهم بلا منافس. لم اش بأيّ أحد على الإطلاق ولم أقدم للمحققين شيئاً ذا نفع في كل مراحل التحقيق، وظلت أسرار عملي الحقيقي حبيسة صدري. مقابل هذا كان غيري ممن يعاتبني ويتهكم على تصرفي مع مدير الأمن قد فعل الكثير مما يجب أن يخجل منه أمام نفسه قبل أن يستحي من غيره.

لم أكُ بحاجة لأثبت ما أنا عليه، بينما غيري قد لقي في هذه المقابلة فرصةً مواتية يكفّر فيها عن انهياره المخزي أثناء التحقيق. كان متحمساً بريادة الاحتجاج وأظهر جرأة كبيرة ليقنع نفسه أولاً بأنه لم يكن ضعيفاً، وجعل من الحدث فرصة وهمية لجبر ما قد كسر بانهياره أو كانت محاولة ترضية داخلية لإصلاح ذاته المهزومة. يا للأسف كانت صحوة متأخرة جداً قد فات وقتها وجاء القطار ليس متخلفاً عن موعده وحسب، بل حين كانت السكة قد رفعت، وما عاد له

أن يسير ولا لنصف خطوة. هذا الموقف قدم لي درساً بليغاً، بإن الصراخ لا يكشف إلّا عن ضعف مثله أو لربما أكبر في خبيئة صاحبه.

انتابني حينئذ شعورٌ مرير، لأني كنت فاشلاً في التبرير وعاجزاً عن مواجهة هذا الهجوم برد يقنعهم، لأني لم أكن أريد أن أعكر العلاقات بيننا، إلّا إنه عليّ الاعتراف بأني كنت ضعيفاً حتى في هذه. لم أتضامن مع موقفهم الجماعي كما تقتضي المصلحة العامة، بحسب ما كانوا يقولونه. ربما حالتي النفسية وعدم اكتراثي كانا وراء ضعفي هذا، بيد أني على أيّ حال لم أقدر على تغيير رأيي ولا انتقاده رغم الضغوط النفسية الكبيرة آنذاك. كنت واثقاً من عدم جدوى الشكوى لأيّ من هؤلاء الجلادين الوحوش، لأنها لم تكن لتغير شيئاً أبداً ولو بحسابات المصلحة النفعية. كنت متيقناً إن قرار الحكم علينا بالموت قد صدر لحظة انتهاء التحقيق، والتوقيع أمام قاضي التحقيق صادق عليه بالختم الرسمي بشكل نهائي، وهذه المقابلة ما كانت إلّا بمثابة نظرة أخيرة على جثمانٍ مسجى ينتظر الدفن بعد برهة قصيرة. وستثبت الأيام هذا قريباً، وقريباً جداً. حسناً فعلت حين لم استجد من قلوبٍ خُتم عليها بصنعها القبيح وفي أسماعها حشر حجر صمّها، وأسدلت على أبصارها ستائر غشاوة لا يتسرب منها نور فاضحوا يعيشون في ظلمات قاع بحر لجّي، فأنى لهم مع كل

هذا النظر إلى شمس الحقيقة ولو كانت تسطع مشرقة فوق يمّ الحياة وبر الإنسانية.

19

التقيت بقاضي التحقيق في غرفة تجاور فسحةً في طابق علوي كانت مسرح أول تعذيب تعرضت له. كانت أجهزة الأمن رغم أعمالها التعسفية وممارساتها الخارجة عن القانون، الشبيهة بعمل العصابات الإجرامية، بل هي كذلك فعلاً، إلّا إنها كانت تحرص على منح إجراءاتها شكلاً قانونياً صورياً، وإن لم يطبق بالمرة. فمثلاً الإعدامات تنفذ بحضور ممثلين عن التنفيذ من جهات معنية به، وإذا قتل شخص أثناء التعذيب تُصدر له ورقة يدعى فيها إنه قد حكم عليه بالإعدام من محكمة الثورة ونفذ به الحكم. من العادي أن يقتل رجل في التعذيب وأن تسلم عائلته جثته وتدفنه، كما حصل مع قريب لي، ولكن وقتما يريدون استخراج أوراق رسمية تثبت وفاته يفاجؤون بأنها تتحدث عن تنفيذ حكم الإعدام في تاريخ يقع بعد أربع سنوات من اليوم الذي ووري في التراب. إذا أرادوا إعدام صبي لم يبلغ سن البلوغ يأخذوه إلى مستشفى لمقابلة لجنة طبية خاصة تقرر أن عمره الحقيقي غير عمره المثبت رسمياً، ثم يقدم إلى محكمة الثورة على أنه رجل بالغ تجاوز السن القانونية ويصدر عليه حكم الإعدام أو المؤبد وفقاً للقانون. التقيت شخصياً بكثير ممن قابل هذه اللجنة ورُفع سنّه القانوني وحكم عليهم كبالغ راشد بالسجن

المؤبد. رأيت بعيني مجموعة سجناء أعمارهم تحت السن القانونية حتى إن بعضهم لم يكُن يتجاوز الثلاثة عشر عاماً، ومع ذلك قضوا مدداً طويلة في السجن بالظروف نفسها التي كنّا نعيشها. كانوا يتصرفون كصبية أو أطفال، لأنهم كذلك بالفعل، وهذا ما دفعنا للتعامل معهم ورعايتهم بشكل استثنائي خاص.

من ضمن هذه الإجراءات الشكلية بحسب القانون، تحقيقان، تحقيقٌ أولي وآخر قضائي، الأول كانت تنتزع الاعترافات فيه تحت التعذيب، أما التحقيق القضائي فيعرض المتهم مع إفادته أمام قاضي تحقيق، ويسأله القاضي بعد أن يقرأ إفادته عليه هل توافق على هذه الإفادة؟ وإذا أقرّ المتهم بها يوقع عليها وتصبح رسمية، وطبعاً هذا إجراء صوري أما الحقيقة شيءٌ مغاير تماماً. إذ كانوا يعرضون المتهم على القاضي فإن قال نعم، مرت الأمور كما هي، وأما إن أنكر الاعترافات فإنه يواجه جولة جديدة من تعذيب أقسى وأمرّ من سابقه، ثم يعاد عرضه ثانية أمام قاضي التحقيق. لا سبيل للمتهم لإنكار الإفادة مطلقاً شاء أم أبى. في بعض الأحيان يتجاوزون هذا الشكل الصوري ويعدّون التحقيق الأولي تحقيقاً قضائياً، وكانوا يلجؤون لهذا الإجراء مع المتهمين الذين حُسم أمرهم بمجرد اعتقالهم لأنهم مطلوبون بشدة من قبل الأجهزة الأمنية، وقد قررت قتلهم مسبقاً قبل إلقاء القبض

عليهم، لذا كل ما كان يحصل هو جولة قاسية من التعذيب لانتزاع المعلومات منهم فقط، ثم يقسر على توقيع إفادة تعد تحقيقاً قضائياً ويرسل إلى الإعدام بأسرع ما يمكن. إذا لم يعترف أو رفض التوقيع على الإفادة المفبركة، فتعد له أوراق تحقيق مزيفة في غرفة مخصصة لهذا الشأن ويعدم على وفقها.

في نهار يوم شتائي استدعيت إلى قاضي التحقيق، وصعدت مع حارس أمني واحد عبر المصعد وحينما وصلنا الردهة العلوية تُركت هناك واقفاً بانتظار وصول قاضي التحقيق، تأملت الردهة وعرفت أنها المكان الأول الذي شهد بداية جولات التعذيب. كانت ردهة واسعة بين مجموعة غرف، إلى اليمين هناك غرفة التقيت فيها ضابط التحقيق (عبد العظيم) لأول مرة، وإلى اليسار يوجد ممر فيه أكثر من غرفة، إلّا ان ما لفت انتباهي إن لهذه الردهة الواسعة شباكاً كبيراً جداً بحجم الجدار، تنسدل عليه ستائر من قماش سميك رمادية اللون متراصة بكثافة. الشباك كان عرضه يناهز الخمسة أمتار تقريباً. كان منظراً غريباً فعلاً أن تكون ردهة في طابق ثالث تحتوي على شباك واسع بهذا الحجم، وبدا لي كأنه حائط من زجاج.

كنت أقف في منتصف الردهة وحدي طليق اليدين مفتوح العينين، لا يوجد بالقرب مني سوى شرطي ضخم الجثة يقف

بملاصقة الحائط الزجاجي. فجأة غمرني إحساس بأن الحياة باهظة الثقل، ولم أعد قادرًا على حملها. ماذا لو قفزت مع هذا الشرطي عبر زجاج النافذة فأموت ميتة جديرة بالنهايات البطولية الرائعة؟ إن هي إلا وثبة قصيرة وسوف آخذه معي من الطابق الثالث إلى الأرض ونقتل معاً. لماذا لا أعاقبهم على قتلي المقرر لاحقاً بقتل واحد منهم؟ كان أغراء الانتحار صادقاً، واستحوذت عليّ شجاعة مفاجئة في إنهاء حياتي. أنا ميت لا محالة، في هذا اليوم أو بالإعدام شنقاً. إذن حياتي بلا شك معرضة للخطر، فلمَ الإصرار على التمادي في حياة سوف تتكسر أجنحتها قريباً؟ هي قفزة واحدة وسوف أبلغ بها نهايات الوجود وأتحرر من العجز والضعف والاكتئاب، بل أصل إلى نقطة النقاء التي افتقدتها في حياتي. لم يؤثر في قراري الكلفة الباهظة التي من المتوقع أن تتكبدها عائلتي بقتلي لرجل أمن، ولا شك إنها سوف تكون تركة ثقيلة لن ينجو أحد منهم، لأني لم أفكر بها أصلاً. كما لم يخطر على بالي مطلقاً إن الزجاج قد يكون سميكاً أو مدرعاً. لأنه لم يكن هذا النوع من الزجاج شائعاً، ولم أكن اعرف بوجوده أصلاً.

أقف فوق المدينة التي تخلت عني، وعاصفة هوجاء تعوي في ذهني، تدوي وتنوح وأرى الشياطين تمرح في أرجاء الكون. خيل لي أني لم أعد أسير فوق الأرض، بل أني

قد اختطفت وحملت فوق سحب سود إلى مكان مجهول وينبغي الخلاص من هذا المكان الشرير بأي ثمن. بقيت الفكرة المجنونة تدور بعنفها والكرب يخيم عليّ لعدة دقائق، وبدأت أستعد لتنفيذ الفكرة، التي تحولت إلى قرار نهائي تجاوز المراجعات النفسية الداخلية كلها. شعرت برغبة جامحة في إنهاء حياتي، ولم يتبق إلا أن أنتظر لحظة لا ينتبه فيها الشرطي لحركتي، ثم أباغته وانجز الخطة بنجاح مثالي. اقترب الرجل كثيراً من الحائط الزجاجي وانا اسمّر نظري عليه استعداداً للوثبة الأخيرة نحو نقطة الختام في تاريخ وجودي في هذه الدنيا. أزاح الرجل الستارة بتأن لينظر من خلال الشباك إلى شيء ما في الخارج، وكانت المفاجأة بأن هذا الشباك الزجاجي الكبير محميٌ بشبكةٍ حديديةٍ يطلق عليها في العراق اسم "الكتيبة". صعقت وتخيلت كم كان للمشهد أن يكون دامياً لكن من جانبي فقط. إذ لو نفذت خاطرتي لكنت أوقعته أرضاً وربما تكسر الزجاج ليس غير، أما أنا فسوف تكسر عظامي بعدها تحت هراوات رجال الأمن ومن الممكن أن أهلك تحتها قبل صدور حكم الإعدام. وئدت الخطة قبل تنفيذها لكن قراراً كهذا مني وإن لم ينفذ، وشى باليأسِ الذي كنت أحمله حينئذٍ، وإلى أيّ حد كنت أخاطر بالتصدي لهذا اليأس. اليائسون حينما يرتكبون أفعالاً انتحارية إنما يفعلون ذلك لأن كل سبل النجاة أوصدت أمامهم،

وحينهـا يـرون أن لا قيمـة لاسـتمرارهم فـي مواصـلة كفـاح محتوم الخسارة، والخطورة الأشد والأعظم إنهـم لـن يجدوا مـن ثمـن مهـم أو قيمـة ذات بـال لحيـاة أيّ مـن خصـومهم. المنتحرون لا يفعلون شيئاً سوى إنهـم ينتقلون من موت إلى آخر.

20

بعـد أن انتهـى التحقيـق بشـكل نهـائي وتمـت جميـع الإجـراءات الشـكلية، توجهـت قضـيتنا إلـى أدراج الانتظـار تمهيـداً ليـوم المرافعـة النهائيـة فـي محكمـة الثـورة، وإصـدار الأحكام التي كنّا نعرفها مسبقاً. إنما فوجئنا بحدث غريب خارج السياق وعكس المنطق بالكامل، لم نك نتخيل وقوعه أبداً نظراً لتلك الظروف المريعة التي مررنا بها. لم يكن بحساب أيّ منّا أنه سوف يظفر بفرصة للقاء أسرته، وهو في هذا المحبس الفظيع. بلا تمهيد فوجئنا يوماً بضباط التحقيق يخبروننا بأننا سوف نحظى بفرصة للقاء عوائلنا في وقت قريب، وهكذا كان بالفعل.

جاء دوري في مقابلة أهلي، صعدت إلى غرفة ضابط التحقيق طليق اليدين مفتوح العينين، يرافقني في صعود السلالم شرطي كنت أعرف اسمه، وكان متساهلاً معي ليس في ذاك اليوم فقط، بل في أي مرة اكون معه على انفراد بلا رقيب يتلصص علينا. وللإنصاف فإنه كان من العناصر النادرة التي تبدي تعاطفاً معنا. كان يبدو من بعض تصرفاته أنه يشعر في قرارة نفسه بظلامتنا، لكن طبيعة عمله جعلته حذراً للغاية. لم يكن هذا انطباعاً شخصياً، بل سمعته من أكثر من واحد. هذه المشاعر الودية تجاه عنصر أمني يحسب من الأعداء

بالمنطق العادي كانت تكشف معدن المعارضين السياسيين آنذاك، فإنهم لم يكونوا يعادون أحداً لشخصه أو عنصره ولا لفكره، بل كان موقفهم بناءً على سلوكه. المعارضة السياسية يجب أن تكون ضد المواقف المناهضة للإنسانية والحرية، وليست ضد الأفكار والانحدارات العرقية كما رأينا جهات عدة تفعل ذلك، وبأفعالها هذه شوهت معنى المعارضة وأصبحت في نزاعاتها ليست سوى جزء من قطيع ذئاب يتقاتل على فريسة.

على الرغم من إن الرجل متورط بالعمل في أحقر جهاز أمني، إلّا إنه كان موضع ترحيب واحترام، بل ومحبة من المعتقلين لمواقفه وأفعاله مع إنها لم تكن تغير شيئاً من نتيجة المعادلة. هو واحد من أشخاص هم قلة جداً، كنا نراهم في ورطة حقيقية بانخراطهم في هذا العمل التافه. كان جليًا أنهم ليسوا من نوع زاخر الوجود في جهاز يتمتع بقسوة القلب وخبث السريرة بالسليقة من غير حاجة إلى تعليم وتدريب. أيضاً لم نلحظ على هذه الفئة النادرة الاندفاع لإيقاع الأذى بدوافع ذاتية، بل فقط عندما يكونوا منخرطين في عملهم. هذا لا يعني أنهم لم يقوموا بأفعال سيئة، بل فعلوا ذلك لأنهم اختاروا المهنة الخطأ. كنت أقدر أن بعضهم اختار الفرار لهذه المهنة الحقيرة ظناً منه ان بها الخلاص من الخدمة العسكرية الإلزامية التي تجبره على الذهاب إلى جبهات حرب اشتعل

أوارها حينئذ، وحصدت أرواح الشباب بشكل جماعي مريع بين قتيل وجريح أو أسير مع أنباء تحمل استسلام عشرات الآلاف كأسرى في أيدي القوات الإيرانية. الخوف من القتل والأسر كان شائعاً بعد موجة معارك خاسرة ابتدأ تواليها سريعاً ربيع العام الذي اعتقلت فيه. على كل حال، هذا النوع من أفراد الأمن لم يكن كثيراً يا للأسف، بل كان نادراً، والغلبة بشكل ساحق كانت للعناصر السيئة التي تحمل خصائص أقرب للبهيمية المتوحشة من أيّ شيء آخر. يقيناً إن أمثال هذا الرجل نَكدُ الحظ الذي جاء بالخطأ لهذه المهنة ليس مستحيلاً تواجده كما يمكن أن ترى وردة تطفو فوق مستنقع، ولكن هل وجودها سوف يجعل من مياهه الآسنة صالحة للشرب أو من رائحته النتنة عطراً فواحاً؟

وأنا ارتقي درجات السلالم مسرعاً محاولاً اللحاق بمرافقي، كنت أرى المكان لأول مرة بتفاصيله الدقيقة، أتطلع إلى جدران المبنى بنظرات فاحصة. تلاشت نشوة اللقاء المرتقب حينما لمحت على أحد الجدران لوحة معلقة عليها توقيع رسام بارع يدعى الطيب كان صديقاً شخصياً لي. شعرت بمقتٍ هائل له، وانفجر غضبٌ عارمٌ في حشاشتي. صرخت بغضب في داخلي كيف يسمح هذا المعتوه أن تعلق لوحته في هذا المبنى القذر؟ أهذا هو الذي نعده من طليعة الثوريين ومن المثقفين الداعين إلى النزعة الإنسانية في الفكر

والسلوك؟ غمرني بغتة شعور فظيع لكل شيء الأفكار والسياسة والأشخاص؟ أي وصف ثان لمشاعري في تلك اللحظة لو صرحت به فسوف أكون كاذباً، لأنه سيكون زيفاً، فقد تألمت ألماً حاداً. كنت يائساً غاضباً، متلاشياً، ولا أدري ماذا أصابني آنذاك، إلّا إني سرعان ما استرجعت وعيي موبخاً نفسي. ما الذي دهاك؟ هل جننت؟ ما هذا الهذر والهذيان؟ ما يدري الرجل بما يُفعل برسومه حين تباع؟ هل عليه أن يتابعها واحدةً تلو الأخرى؟ ثم كيف له أن يعرف انها أخذت إلى مديرية أمن؟ إذا كانت الناس وقتما تدخل إليها تختفي آثارها مثل ملح يذوب في ماء، فهل تبقى من آثارٍ للوحة فنية فيمكن له ان يقتفي آثارها؟

تكاثرت أمام ناظري صور صعودي الوئيد حين كانوا يقتادوني على هذه السلالم نفسها. كيف كنت أحصي ثلاث عشرة درجة، فإنْ أخطأت في حسابها تثور حفيظتهم عليّ لينزلوا بي قصاصاً عاجلاً من صفع أو شتم. لا أذكر كم من خاطرة مرت عليَّ حينها، ولو حاولت عدها لعجزت عن إحصائها، لا حين مرقت بسرعة البرق وقتئذ، ولا حينما أحاول استرجاع شريطها. كانت أوصالي ساكنة ورأسي ترتعد فرائصه خشية اللحظة المرتقبة. أمواج هائجة من خواطر متضاربة، أفكار متناقضة، أسئلة حائرة وردود عليها كانت تنهمر، فتصيب لبها وتطفأ ظمأها بشكل عجيب. لو أروي ما

خطر في ذهنه كله الآن، لبدا طويلاً، ولكن في الواقع أن هذا الأمر قد مرّ في ذهني بسرعة البرق، لأنه حصل في تلك الدقيقتين أو الثلاث دقائق المدة الكافية لطي الأدرج وصولاً إلى محل اللقاء المنتظر. انبثقت وسط هذه الثورة العارمة من الأفكار خاطرة غريبة مرقت أسرع من البرق نفسه، كأنها صاعقة نزلت لتميت كل شيء وأذهبت فورة خواطري في سكون عميق. خاطرة خارج نسق الأفكار أثارت ذهولي ولا أصدق كيف أخرجت عنقها من بين هذا الركام الهائل من تلاطم بحر المشاعر واضطرابها؟ ومضة كانت مثل سنا البرق قالت لي، كيف يمكن لعقل الإنسان أن يقدر على احتواء هذه الأفكار كلها، وكيف له أن يجري هذا الكم العجيب من الحوارات الداخلية في لحظات معدودة؟ تملكني انبهار غريب بقدرة العقل وصرت أتأمل المسألة بروية وهدوء مثلما يفعل أيّ فيلسوف يفكر فيها سارحاً متأملاً، وهو يمشي على ساحل بحر هادئ وتطير من فوقه نوارس بيضاء في نهار تظلل فيه الأرصفة سحبٌ بيضاء تحجب عنه حرقة الشمس لا نورها. سرحت بعيداً في عالم بعيد يقع في الناحية الثانية من الكون، ومثل وحي الأنبياء اندلق عليّ فجأة فيضٌ من ثقة بما حبوت به كإنسان من قدرات عجيبة تدعو للفخر والإعجاب كما تستدعي التقدير والتأمل، أصابتني حينها رعدة من فخرٍ وتواضعٍ في آنٍ واحد.

دخلت غرفة جوها ثقيل بدخان السجائر والأحاديث السابقة، مشبعة بالدفء، وفي قعرها نافذة يتيمة ومنضدة صغيرة نسبياً يجلس خلفها الضابط المحقق عبد العظيم يرتدي زياً مدنياً كالعادة، في حين كان هناك رجال آخرون واقفون طوال الوقت تحسباً لأيّ حدثٍ طارئ على ما يبدو، لأن عيونهم كانت تتابع حركاتي وأنا أدخل عليهم بلا قيود. على اليمين كانت هناك أريكة صغيرة يجلس عليها والداي في انتظاري. مشاعر الأسى والحزن تظلل وجهيهما، عيونهما الشاحبة أمطرت نهر دموع لا يمكن وصف شدة جريانه ولا حرارته. دموعهم كانت تثقب الصخور، بصري مشدود إليهما حتى ثملت عيناي وصارتا تهفوان إلى البكاء. ينظران اليّ مشدوهين مبهوتين إلى أقصى الحدود. والدي يحدق فيَّ بنظرة تشي باضطراب كبير، وأمي يغزو محياها الوجوم. ظلت طائشة اللب طوال المقابلة، ولم تقوَ على التفوه إلّا بنزرٍ يسيرٍ من كلمات يمكن إحصاؤها بسهولة. استجمعت كل قواي وأضمرت ضعفي وإحباطي أمامهم. كان همي الأكبر أن أفهم في الوقت القليل المعطى لنا ما الذي يجري في الخارج. استفهمت بطريقةٍ مشفرة بعض الشيء عن شقيقي الذي أعتقل بسببي. تأكد لي خروجه من المعتقل، فكان خبراً ساراً ومفاجئاً في الوقت نفسه. كانت مواجهة قصيرة سريعة لم تغير شيئاً من الواقع الذي نعيشه، ولم تكن محل تفاؤل كبير كما

هو متوقع، برغم إن حصولها أمرٌ غير مطروق في معسكرات الاعتقال السياسي.

حصلت من هذه الزيارة على بطانية وفيرة منحتني ورفاقي دفئاً بصورةٍ مثالية، وعلى ثياب جديدة حسنت قليلاً من هيئتي، مع أن عناصر الأمن سلبوا الجزء الأفضل والأجمل منها. حصلت أيضاً على سجائر ووجبة طعام منزلي صنعت خصيصاً لي، وعلى مقدار قليل من سكينةٍ وطمأنينة لم تدم طويلاً. لم يهدأ روعي كثيراً، لأن هذه الزيارة لم تشع جواً للتفاؤل، بل على العكس قد حصل، فقد ساد بعدها تشاؤم كبير. علمنا لاحقاً أن مديرية أمن نينوى تعطي لأهالي المعتقلين السياسيين فيها فرصةً لإلقاء نظرة أخيرة عليهم قبل إنزال حكم الموت بهم. عزز هذا التشاؤم استذكارنا لحادثة وقعت من قبل لطلبةٍ من جامعتنا (جامعة الموصل) سبقونا في الاعتقال. أحدنا كان متيقناً من نتيجة هذه الزيارة، وكان رائداً في سبر غور تاريخ هذه الحادثة، وهو من نقل أحداثها لنا بالتفصيل، وكانت بالفعل مطابقة لحالتنا. النهاية المأساوية المتوقعة طابقت بالفعل خاتمة مفجعة لآخرين التقوا أهاليهم معنا في المعتقل نفسه بعد وقت قصير.

ازددت يقيناً بأننا ننزلق سريعاً إلى هاوية سوف تبتلع الكل، وأن الأرض ستنشق بغتة وتلتهمنا إلى قرار لا رجعة منه. شعور الاطمئنان الذي بدا على محيانا بعيد الزيارة انحسر

سريعاً وانتهى إلى وجوم تام. كانت الأمور تسير فعلاً نحو هذه النهاية التراجيدية. استبدل شعور الارتياح والاطمئنان بشعورٍ من الضياع والتلاشي حين جاء فجر يوم أربعاء بضعة حرس لم نرهم من قبل بمزاج قاتم وطبع غليظ. ساقوا نفراً منّا إلى معتقل ثان تمهيداً لنطق الحكم عليهم في محكمة صورية، تستلم قراراتها من ضباط التحقيق في دوائر الأمن. ها إذن قد أزفت الآزفة وقربت ساعة إسدال الستار على المشهد الأخير من فصول هذه الملهاة المأساوية. بتنا نترقب فجر أربعاء جديد وهو الموعد الدوري لنقل المعتقلين من مديرية الأمن إلى محكمة الثورة.

21

خرجوا فجراً، ولا أذكر كم غابوا تحديداً. لم يعد الوقت مهماً حينها لأنشغل بحسابه، ولَم أعبأ وقتها ولا بعدها بعملية إحصاء الأيام التي سوف أقضيها في السجن فهي كلها متشابهة. دخلنا في نفق من انتظار مقلق، وما كنّا نخاله أمراً دورياً تحول إلى ترقب عشوائي ولد في كوامن نفوسنا مداً عالياً من القلق والحيرة. غرقنا في تحليلات للموقف بفرضيات تخرج من بحر الحيرة التي نخوض فيها ثم نخرج منها بالعدم. نضع هذا العدم على شاطئ حواراتنا بعناية فائقة كأنه صيد ثمين، كما لو كنّا غواصين ماهرين استخرجنا للتو لؤلؤاً نادراً من بطن حوت. وهذا حال من يعدم كل حيلة، لكنه يأبى البلادة والكسل فيبني من أوهامه عملاً، فلربما يعاجله الحظ بضربة لم تكن في الحسبان ويسعى ليخلق من الوهم حقيقة. إحدى الأماسي وعلى حين غرة اندفع إلينا رفاقنا الذين افترضنا أنهم قد حكم عليهم. اعترتنا الدهشة! ومثل مطر غيمة استوائية هطلت عليهم أسئلتنا، ولكن لم نجن منها إلّا حيرة أكبر وخيبة أمل مضاعفة، لأنها كانت ترجع بلا أجوبة. كانت أسئلتنا مثل غيث ينهمر على نهر فلا نبت يستتبع هطوله، ولا يزيد النهر إلّا بما هو كائن فيه. كنّا وإياهم في محلٍ واحد وفي الموضع ذاته لكن بصفين متقابلين فكما

نحن كانوا هم أيضاً، لا يعرفون حقيقة ما جرى، سوى حكاية موجزة يكررونها بلا أيّ معنى. أخذوا تمهيداً للمحاكمة وفي يومها ظلوا حبيسي شاحنة مغلقة أمام مبنى المحكمة ثم عادت بهم بعد سويعات إلى المعتقل الخاص نفسه. وظلوا طوال الفترة المنصرمة هناك في ظروف عجيبة في قسوتها، وها هم عادوا وانتهت الحكاية. نهاية غير مفهومة ولا تفسر شيئاً مما جرى أو سوف يجري، بل هي ليست بنهاية.

رحنا نتخبط بفوضى، حيناً تثري فينا آمالاً كباراً وتارة أخرى تخنقنا بقسوتها. نتأرجح بين صور مزدحمة مشوشة توارينا ساعة في طمر النسيان وفي أخرى تطوف فوقنا مثل شبح تعيد إلينا الحياة. كان ليلاً شتوياً خيم علينا ببرده القارس ذكرنا بهشاشتنا وزاد مصيرنا المجهول غموضاً. كان علينا بعد عناء التفكير ومشقة الأسئلة السائبة أن نجابه هذه الحلكة المضاعفة، إما بالقبول بأننا على وشك أن نفقد كل شيء، أو نظل نتشبث بسراب الواحة النائمة خلف التل. لم يكن وارداً أبداً زجر كلتا الصورتين عن أعيننا الشاحبة المنهكة فقد علقنا بينهما بلا فكاك وفقدنا غريزة النسيان واستقرت شهوة القلق في قعر ذاكرتنا اليقظة. ثم أيقظنا من نومتنا، وحيرتنا صوت ضابط في ساعة متأخرة من الليل، قال بضع كلمات باستعجال ورحل سريعاً. كلماتٌ حملت نبرةً جديدةً أخمدت الحيرة وأحيت فينا أملاً بمواصلة الكفاح من اجل البقاء ولو

في زنزانة. قال باختصار: خفيفة إن شاء الله، السيد الرئيس أمر بإيقاف الإعدامات. كلمات حفظتها حرفياً فقد قذفها في داخلي عميقاً صخب تنازع الصور وتجاذب أطراف القلق. تغير كلُ شيء، وقرار الحكم علينا بالإعدام اندلف إلى زاويةٍ بعيدة منكفئاً، وصار يحدونا أمل حقيقي بمواصلة البقاء، على الأقل أنا شخصياً صرت متيقناً من هذا في قرارة نفسي. وثبت أمامي تلك الرؤيا الغريبة التي رأيتها أول اعتقالي بأني سوف أحكم بالسجن المؤبد، ولاحت لنواظري صور تجرجرني للأمام، وبتُّ أتهيأ لأخمد رغبة اليأس والعبث التي استوطنتني لأشهر. لم أقف على تبريرٍ واحد أفسر به هذا التحول في الحكم علينا. ظل عصياً على الفهم أبداً، لأن كل شيء في البلد كان يجري بقرارات مزاجية لفردٍ واحد. ليس من اليسير فهم دواعي صنعها، فهي كانت كأنها أحجية بلا حل. لا يوجد تأويل ملائم لها إلّا أن تكون نوبات انفعال وهلع تصيب هذا الفرد المتسلط على كل شيء في البلد هو وجهازه الخاص. هذا التحول في مصيرنا تزامن مع وقوع حادث لا يمكن لي أن أدعي ترابطه معه ولا يمكنني نفيه في الوقت نفسه. فكما لا يمكنني أن أجعل منه حقيقة فولاذية لا تخرق، لا يمكنني أيضاً إغفال أنه قد حفر أخدوداً عميقاً فيَّ. لا أملك فكري من الانجراف عنه وعن توابعه، مهما استجمعت غرائزي وأيقظت سائر شهواتي، وكلما ركنت إلى سبل الفرار منه كنت أعود

إليه آيباً وأقع فيه ثانية.

كانت تسيطر علينا أجواء من جزعٍ وإحباط في ترقب المجهول تزامناً مع موعد المحاكمة. هواجسٌ كانت تهشم صور العالم الخارجي التي بدأت بدورها تتلاشى وتغرق في يمّ النسيان. تورم رأسي حينها لفرط ما كان يحمل من الوجع في ملاحقة القادم وأصبح فارغاً خاوياً إلّا من الحزن. وصارت الزنزانة لجة تبتلع جسدي الذي بدأ يذوي متسارعاً يسابق الموت القادم تطرقه فظاعات ذهنية في كل آن. اصطناع الرزانة والتجلد لم يقوَ بالمرة على أن يواري القلق والرعب من المصير المتوقع قدومه عاجلاً، لذا صارت كوابيس اليقظة الموحشة تنهش فيَّ. إذا استحوذ يقين على أحد بأن سيفاً قادم إليه قريباً سينحر أوداجه فإن حرارة حزه لأهون عليه بكثير من لهب انتظاره. لشدة لوعتي في تلك الأيام تمنيت من صميم قلبي ألَّا ينزل بأحد وإن كان جلادي نفسه، ما كنت اعيشه من محنةٍ قاسية. إني لأعجز عن بيان ما كابدت من الألم النفسي ومضاضة كل لحظة كانت تمر عليّ. كنت أكتم هذه المضاضة حبيسةً في أحشائي فتبالغ في إيلامي أكثر مما هي موجعة بنفسها وحدها. هذا كان يحصل للجميع على الأغلب، ولا أدري فقد يكون أكثر مما كنت أقاسيه وأكابده. لم نتشارك إبداء الوجع، بل كلٌ حاول إضماره عن غيره كي لا يؤذيه، أو كنا نخشى نكأ الجرح فيتضاعف الألم.

صورة قاتمة لخروجنا من مستودع باردٍ في صناديق خشبية يحيط بها حرس قساة يحظرون البكاء ويمنعون العزاء، أمام نواظر أمهات ثكالى تغطيهن جلابيب سود ما أذن لهن من البقاء في هذه الدنيا. هيئة تدفع قتامتها إلى كل الأشياء اللاتي تحيط بهن، وتحيل أيامهن ليالي. آباءُ لن يفارقهم عبوس أزلي ويستعيضون بوجومٍ مقيم بدلاً عن دموعٍ لن يذرفوها علناً، وحين يفعلون فسوف تكون دموع كمدٍ في الخلوات فقط، هرباً من ملاحقة الشماتة ومن عيون عناصر الأمن الذين سوف يطاردوننا حتى ونحن في اللحود. شقيقات سوف يغلقن الشبابيك، لأن دروب العشاق ستحول مسارها بعيداً عنهن خشية مصير مشابه لمصير أشقائهن. فرسان أحلام سوف يلوون أعناق خيولهم بعيداً عن نوافذهن يستنكفون المرور تحتها، فقد أصبحن منتميات لطبقة منبوذة كالداليت الهندية لا يجوز للأشراف مصاهرتهن. سيخرج أشقاؤنا كل يوم إلى أعمال جديدة، على الأرجح سوف تكون حقيرة بعد أن يطردوا من وظائفهم الحكومية، يتحاشون نظرات الاتهام والريبة من الجيران. تتضاعف أمامهم قتامة وحلكة الأيام الدامسة قبل لياليها، حين يتحاشاهم صديق أو قريب كان يرتاد المقاهي والملاهي معهم. لا يمكن أن أصف جميع الصور الوخيمة، لأن مجرد كتابتها الآن يقطعني بشفرات نصلها الحاد، واني لأرأف بكل أحدٍ أن يتخيلها. المهم أنها

مرّت عليّ وليتها لا تعاود المرور على إنسان غيري.

22

هل تعرفون إني سمعت قولاً مأثوراً عن النبي محمد أنه قال: لو قُرأتْ الفاتحة سبعين مرة على ميتٍ ونهض بعدها فلا تعجب؟ سألنا أحد الذين كان معنا ممن كان يحفظ من الدين أكثر من غيره ويمارس طقوسه بانتظام، ويحثنا على فعلها. لا أخفي القول، إن عقلي لم يصدق أبداً ما كان يقوله صاحبنا، ولا كنت أدري من قبل ولا من بعد هل فعلاً هناك نقل موثوق يعتمد هذا القول عن النبي محمد أم لا؟ رغم ذلك فإني لم أنبس ببنت شفة اعتراضاً عليه ولا جربت إبداء أيّ نوع من أنواع التلميح للرفض أو التعجب حتى لم أكلف نفسي بتقطيب وجهي أو رفع حاجبي أو نظرة شزراء. بدا ما يقوله غريباً وهو أقرب إلى حكايات أسطورية مبالغ فيها، لكني لم أنكر عليه قوله. لربما لو قيل لي هذا الكلام في غير تلك الساعة لكنت تفحصته وقلبته بعدد ليالي شهرزاد، ومن الوجوه كلها كعادتي المألوفة في النظر والتدقيق، وما كنت لأصدقه في النهاية لأنه خلاف منطق الأشياء. نزل قوله كقارب نجاة لا مناص من التشبث به، والعبور به للخلاص من خطر الغرق المحدق. حل قوله عليَّ مثل غيث يطمر ببرده لسعة نيران تكتوي بها حشاشتي. جلسنا مجتمعين هادئين بانكسار، كنت أسمع نشيجاً خفياً من بعض الرفاق، ونحن

نقرأ سورة الفاتحة لسبعين مرة في إخبات همدت معه الآهات، كل الآهات. حين انتهينا تنفست عبق عطر ملأ رئتيّ بهواء نقي مثل نسيم ربيعي يهب في ظهيرة يوم تموزي جاء من عالم لا علم لي به أشبعني بفيضٍ غريب. انزوينا بعدها كلٌ إلى محله في مخدعنا المزدحم وقد هدأت طباعنا كأننا قفلنا للتو من حلقة ذكر صوفي أنهكنا فيها من الرقص عشقاً. حصل هذا في عشية اليوم الذي اقتادوا فيه رفاقنا إلى المحاكمة الملغاة التي تغير فيها حكم الإعدام إلى حكم وصفه الضابط بالخفيف بعد أن أمر الرئيس بإيقاف الإعدامات. تلك الليلة الصوفية اندفعت بكل ما فيها إلى كياني ولم تخرج منه أبداً.

عدنا إلى الحياة من جديد بعد هذه الحادثة الغريبة، أو المصادفة العجيبة. بدأت بعدها أحاول أن أرتب دواخلي لحياة طويلة في السجن، مع إنه لم تتوقف عن مصادفتنا أمور كثيرة تثير الغثيان والاشمئزاز والقرف، منها سلوك أفراد الأمن الحافل بالتناقض. فجوة شاسعة جداً بين بريق الشعارات وبهرجة الادعاءات التي يتظاهر بها الحزب الفاشي والمروجون له، وبين واقع حاله. هذا ليس حكراً عليه، بل إنه عين ما يفعله جلّ أصحاب الأحزاب الذين لا يناضلون لفكرة يؤمنون بها، بل يقاتلون بشراسة لأجل السلطة. يستفرغون كل ما في وسعهم ويبذلون أقصى جهدهم لبلوغ مآربهم بوسائل

خبيثة لا يكفون عن تبريرها. قيادة خاوية من القيم الإنسانية والمبادئ تزوي النظر عن أخلاق أتباعها الرذيلة، وعن أصولهم المنحطة فهم مركبها الذي تبلغ به مآربها في الجاه، والسلطة، والزعامة، والثراء. يستعملون تلك الزمر من الأوباش والأراذل عن علمٍ ودراية، ولا يوفرون جهداً من حثهم وتشجيعهم على ارتكاب كل الموبقات ليرهبوا خصومهم.

في بعض الأحيان تبلغ تناقضات العاملين في هذه الأجهزة القمعية من السخف حداً يثير الشفقة على أصحابها، ويبعث على الضحك ويدعو للسخرية من عفن عقولهم. كانوا رديئي الطباع والأخلاق، لا ينطقون إلّا سباباً وشتائم كأنهم لم يعرفوا لغة غيرها من ساعة ولادتهم. كنت أنظر لهم متعجباً فهم يجيدون ألفاظها بطريقة فريدة لا تخطر على بال أحد، ولم اسمع بها من قبل. حينما كنت أصغي لهذا السباب المقذع المتبادل بينهم، أتساءل هل هؤلاء بعد العمل يعودون لبيوت يسكن فيها أطفال، وترعاها زوجات فترق قلوبهم لها وتحنو عليهم، أم إنهم يسكنون أرض قفر من كل شيء، جردتهم من مشاعر وأخلاق البشر؟ كانوا فاسدين لدرجة فظيعة وإني لواثق من إنهم كانوا فاسدين بالأصل، أمضوا أعمارهم سعياً في التنقيب عن حرفةٍ يزاولون فيها الرذائل فبلغوا غاية مرامهم وأفق أحلامهم في هذه المهنة الفظيعة

بقبحها. كانت الدسائس والوشايات والنميمة زادهم اليومي، يتشاتمون على كل شيء، بل ولأجل لا شيء أيضاً. من اليسير أن تنشب مشاجرة بينهم، ويكفي لحصولها مجرد ريح باردة تمر من فتحة بابٍ موارب لينهمكوا في شجار فلا يوفرون لفظاً قبيحاً إلّا واستخرجوه من جعبتهم التي لا تنفذ. قساة غلاظ لحد رهيب، كنت وأنا أراهم أو اسمعهم، أحسب أنهم خلقوا لأجل هذا وحسب. حين كانوا يسمحون لنا بمراجعة دورة المياه بعد كل وجبة طعام، كان يتناوب علينا حرس مخصصون لهذا العمل. من يأتي اليوم لا يأتي في الغد. لم تكن تتغير المجموعة وحسب، بل تتغير الأخلاق معها أيضاً. يأتون في يوم بأسلوبٍ جافٍ غليظ يشبعوننا سباً ومهانة ويثيرون حنقنا وغضبنا، ويحل محلهم في اليوم التالي أصحاب لهم على النقيض منهم، متساهلون ويسردون علينا أحاديث وقصصاً وقعت لهم كأنهم يسلوننا ويروّحون عنّا. يخال المرء بعدها إنهم لا ينتمون لهذا المكان، لولا زيهم العسكري والهراوات التي لا تفارق أياديهم والسلاح المركون دائماً إلى جنوبهم. ولولا أني كنت أعرف الحارس الذي يظهر الوداعة ويتكلم بنعومة بأنه الرجل نفسه الذي كان يظهر أنواع الفنون في إلحاق الأذى بالمعتقلين في الزنزانات الانفرادية حينما كنت محتجزاً، لصدقت إنه جاء بالخطأ لهذه المهنة. هذان الوجهان المتضادان كان ترتيباً معداً من رؤسائهم

لترهيبنا من جهة واحتواء غيظنا من جهة أخرى، وكانوا لا يعيرون بالاً لتخالف صورهم ولا لتباين سلوكهم، فهذا الحمل الوديع نفسه بعد حين يصبح ذئباً مفترساً والعكس بالعكس. أدركنا بعد حين أنها حرب نفسية معدة بإحكام للتلاعب بالسجناء السياسيين. كانوا بارعين في الخداع والخبث، ماهرين في التلاعب والمكر وصنع المكائد والأحابيل، ممتلئين بالجشع، حريصين بجنون على منافعهم، وفي غاية الإهمال لمصالح غيرهم، وهكذا لا يكون المرء مخطئاً إذا لم يصدّق ولم يثق بأحدٍ منهم مطلقاً. لا سبيل لتغيير النظرة المستقرة عليهم بالعموم فهم وحوش بمظاهر آدمية، رغم اصطناع تغيير المعاملة بين يوم وآخر، إلّا إن طبائع الأشخاص وأمزجتهم الشتى، وأفكارهم الخاصة كانت تنضح من كل واحدٍ منهم.

أحدهم كان يظهر خلاعة ومجوناً، ولا يكف عن الحديث عنها، وآخر كان يحمل مسبحة طويلة كأنه راهب ناسك يقيم في صومعة على قمة جبل. هذا الحارس الدرويش مثلاً كان يختص ببلادة حيوانية وفظاظة مفرطة بشكل متفرد. تشع البداوة والقساوة من محياه لمن يراه ولو لبرهة واحدة، وترشح من لهجته لو سمعه يتلفظ بضع كلمات، وإن كانت بلا معنى. عيناه زائغتان بالسليقة، دميم المنظر وبهذه العيون غير المتناظرة ازداد قبحاً وبشاعة. مفتول العضلات، قصير،

ذو جثة مملوءة، لا يتوقف لسانه عن التسبيح والتهليل حتى وهو يراقب خروجنا لقضاء حاجتنا الطبيعية. في يومٍ انفجر غاضباً مثل برميل بارود لسبب مفرط في السخافة إلى حد أني لم أوفق لاسترداده من ذاكرتي رغم محاولاتي الكثيرة واليائسة للعثور عليه. اجتمعت البلادة مع التفاهة، فنتج عنها شيء أكثر من أن يوصف بالجنون. أحمق فهم سلوكاً غير مقصود بطريقة معوجة، فازداد شناعة وبدا كأنه مسخ ممسوس. لم يكن ليحصل هذا إلّا لأنه ضعيف العقل فائق الغباوة. انفجر غضبه الهستيري على أحد المعتقلين فأشبعه ركلاً ورفساً وانهال عليه ضرباً بهراوته في الوقت نفسه بلا انقطاع. لسانه الذي لا يكف عن التسبيح كأنه انقلب بسحر ساحر إلى ماكينة شتم ابتلعت كل أوراده المقدسة كما فعلت عصا موسى بأفاعي السحرة. هجم عليه مثل وحش ضاري منفلت من عقاله وأوشك أن يفتك به. في المقابل كان صاحبنا على النقيض منه تماماً، ضعيف الحجة عاجز عن الإقناع في أيّ أمر وهو يملك كامل حريته، فكيف به اليوم وهو مكبل تمزقه أنياب وحش أصم وتقلبه على البلاط مخالب حيوان هائج. لم نكن نملك خيارات لنصرته في هذه المواجهة غير المتكافئة، ولو جربنا ذلك تهوراً، لأنقلب الحال بلا ريب إلى مجزرةٍ حقيقية. مع ذلك لم نقدر على التقوقع بالسكوت فانبرى أحدنا بطريقة دمثة بعد أن لمس فتوراً في

ثورته. أقنعه بكلماتٍ قليلة لكنها كانت متماسكة وبليغة، بأن الأمر لا يعدو سوء فهم، وانه لم يكن يقصد شيئاً سيئاً. بدت على البدوي علامات تراجعٍ وندمٍ انعكست علينا فرحاً واستبشرنا بنجاة المسكين من عقابٍ مجاني نزل عليه بلا مبرر، إلا أن فرحتنا لم تكتمل. واجهنا معضلة أشد بعد سكون غضبه، إذ قال لنا هذا الحارس الورع: ادخلوا الزنزانة، فأنا لا أقدر على السماح لكم بدخول المرحاض الآن. بهتنا من كلامه ولم نفهم ما يقول، بعد ان ظنّنا إن كل شيء قد عاد لمجراه. أردف كلامه بثقة وبيقين رجلٍ متدينٍ غاية في التقوى موضحاً قراره الغريب.

- لأني حينما كنت غاضباً، أقسمت ألّا تخرجوا لقضاء حاجتكم اليوم، ولا أستطيع كسر يميني لأنه حرام.

تبادلنا نظرات دهشة وكتمنا قهقهة استغراب، ومن حينها ازدادت سخريتي ممن ينصتون خاشعين لتلاوة بورع بعد نهارٍ طويلٍ حرموا أنفسهم فيه من لذائذ الشراب والطعام ليهبوا بعدها لفعل اشد الموبقات. هذا الأمر تكرر حصوله من أولئك الحرس ومن عناصر أمن كنّا نراهم من كوة الزنزانة يتحلقون على مائدة إفطار رمضاني ثم يقومون بعدها متعجلين تملؤهم الحماسة لجلد أمرئ لا يعرفونه، وينزلون به أشد العذاب ولو قيض لهم افتراسه لفعلوا. هؤلاء وغيرهم من صنف جماعة تبني الأوهام حول الجنة التي تحن إلى

دخولهـا، فتمـزج الحقـائق بالأوهـام والأمـاني، والحاضـر بالمستقبل. يعيشون تحت سيطرة تخاريف خيالية يبتدعونها بأنفسهم، ثم يؤمنون بها. كانت من اسمج وأحمق وأبعد الأكاذيب عن التصديق أن تكون السماء منبع قيم الخير كلها وفي الوقت عينه تقبل بهذا الغباء والوحشية، بل وتكافئ أصحابها بالفردوس فقط لأنهم يقفون في المحراب يتمتمون بكلمات أو يجوعون لنهار. من يومها سخرت، ولم أندم على استهزائي أبداً من دين قوم يجيز كل هذه الفواحش والقبائح، ولكنه لا يجيز كسر يمين على دخول مرحاض.

23

ما أن ولج رفاقنا في الزنزانة قادمين من رحلتهم إلى جلسة المحاكمة الملغاة، وإذا بأقدامهم العارية وسيقانهم المتورمة تخطف أبصارنا. كانت كأنها جذع سنديانة معمرة بلا أغصان، ولا ورق ولا ثمر. كانت أرجلهم من الضخامة كما لو أنها مخصصة لتحمل عملاقاً، وليس أجساداً نحيفة شاحبة. مشهدٌ حمل تنافراً مقززاً بين قاعدة عريضة متينة وبناءٍ رفيع مثل خيط أوشك على الانقطاع. توزعت مشاعرنا بين فرحة برؤيتهم من جديد وهم أحياء، وبين استغراب لعودتهم، لان من يغادر لا يعود. الأرجل العملاقة أثارت فينا التوجس من السبب الكامن وراءها، وتبادر إلى أذهاننا على الفور بأن ما نراه هو أعراض عقوبة لم نألفها، وسوف تطالنا عن قريب. كأننا لم نكن نزدحم بالهموم والمخاوف، فجاء منظرهم الغريب ليضيف هاجساً جديداً لسلة القلق، التي نحملها فوق رؤوسنا ليل نهار. اختلطت الأمور علينا وسط غموض وإبهام ما نرى، وباتت أرواحنا حيرى لا تعرف أين تقف ولا تعرف لمن تلجأ وتأوي.

بعد أن انفرجت الأسارير بمجيء الضابط وهو يحمل بشرى إيقاف الإعدامات، وهبنا أنفسنا فرصة لإيقاف ثورة الهلع التي أصابتنا، وكبحنا الأسئلة التي أمطرنا بها أصحابنا.

ثم بدأوا يقصون علينا رحلتهم إلى أرض العجائب. استهلوا الحديث بالقول: كنا في مديرية الأمن العامة. وهي أكبر مُعْتقل سياسي في البلاد، وتضم الشعبة الخامسة الرهيبة المتكفلة بالشأن السياسي أو بالأحرى الشعبة المختصة بتصفية المعارضة، ولذا يحتجز فيها أكبر عدد منهم تمهيداً لمحاكمتهم الصورية في محكمة الثورة. رفاقنا احتجزوا هناك في زنزانة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران تضم دورة مياه بدون باب مساحتها متر مربع واحد تطوقها حيطان ثلاث يصل علوها لأكثر من مترٍ واحد بقليل. لها بابٌ حديدي محصن ضخم موصد بأقفالٍ كبيرةٍ من الخارج، مغلقٌ على الدوام وفيه فتحة صغيرة في الأعلى يُمرر منها الطعام إلى القاطنين فيها. ولها فتحة تهوية واحدة بحجم خمسة وعشرين سنتمتراً طولاً وعرضاً تقريباً، ثبتت فيها مفرغة هواء صغيرة وضع بالخلف منها صفيحة معدنية سميكة بثقوب صغيرة كثيرة تسمح بمرور الهواء منها، إلا أنها كانت تحجب الرؤية عن أيّ مشهد في الخارج، وتمنع أيّ شعاع للشمس من الدخول. يتدلى من سقفها مصباح شاحب، يلقي ضوءه على أرضية إسمنتية خشنة. هذا الوصف المقرف من المؤكد أنه يزعج ويسبب الآلام النفسية لكل إنسان ألف العيش في الفضاءات المفتوحة ومارس حرية التنقل فيها، إلا أنه لم يكن الأمر الاستثنائي المثير للاشمئزاز في هذه القصة، فأسوأ ما

فيها كان العدد الذي يسكن فيها. في أقل الأحوال كان يصل إلى سبعة وعشرين وفي مناسبات كثيرة يكون أكثر من هذا بكثير، وقد يصل إلى ثمانية وثلاثين. أمرٌ لا يصدق فعلاً، فكيف يمكن أن يعيش كل هؤلاء في ستة أمتار مربعة؟ بل إنها خمسة فقط، إذا اقتطعنا منها متر دورة المياه، لكن الحقيقة إن أفضل مكان كان دورة المياه. طبعاً لا اقصد حين يختلي السجين فيها، لأنه بالأصل لا توجد هكذا خلوة إلّا في الأحلام، بل لأنها أرحب الأماكن للجلوس. الوصول إلى هذه البقعة الأثيرة يسير بالتناوب على وفق نظام يشمل الجميع، وكم كان يسعد المرء حينما يصير من نصيبه السكن في مربعها. تُغطى فتحة المرحاض الشرقي بأيّ شيء متوفر يمكن أن يخفيها، لتصبح أرضاً مستوية. ليس استنكافاً من محتوياتها، فإن هذه المحتويات تعاصر سكان الزنزانات ليل نهار في كل مكان زرناه لاحقاً، ولم يعد أيّ سجين بحاجة إلى الاستعلاء على روائحها. المطلوب من هذا الغطاء ان يجعل الفتحة متراً مربعاً حقيقياً بلا تجاويف كي يغدو بعدها نُزُلاً يتسع لأربعة أشخاص محظوظين. إذن هذا الازدحام كان علة تضخم أقدام الذين عادوا إلينا من تلك الزنازين يحملون إلينا حكاية اللقلق.

طائر اللقلق عشعش في رأسي في حكاية ليست عذبة بريئة، كقصته الظريفة حينما رأيتها في فيلم سينمائي اسمه

"وداعاً أيها اللقلق"، والتي يعرفها الأطفال الأوربيون حينما يسألون أهليهم كيف يأتي الأطفال إلى هذه الدنيا؟ فيشبعوا فضولهم بأن اللقلق يأتي بهم. قصة جميلة حينما كان للحشمة محل في العوائل الأوربية. أما وقد مات اللقلق الأوربي مع مصرع الحشمة فيها وربما في العالم كله. فإن لقلقي لم يرحل بعيداً. بل لم يزل يعشعش في رأسي كأنه يستوطن برج كنيسة بغدادية، يبيض ويفرخ فيه وكلما رحل عنها يعود. أراد العتاة أن يحطموا نفوس المعارضين، ويسحقوا عزيمتهم قبل أن يُنزلوا العقاب الأخير بهم، ويجعلوا من اثنين وثلاثين زنزانة منها ممراً إلى فناء محتوم. في السنتين الأوليتين من حرب الخليج الأولى كانت تشيع يومياً عشرات الشباب إلى محكمة الثورة ليتلقوا أحكاماً بالإعدام، وهو الحكم الوحيد الذي يناله المعتقلون السياسيون أيّاً كانت تهمتهم أو السن الذي بلغوه ولو كانوا دون الثامنة عشر إلّا قليل منهم ممن كان يأخذ الحكم بالسجن المؤبد إما بضربة حظ أو مشيئة قدر لا يعرف أحد مغزاها والحكمة منها.

جو خانق يكتم الأنفاس وحر قاتل إلى حدٍ أن السقف كان يمطر على مدار الساعة وما كان لهم أن يرتدوا غير ملابس داخلية. أنفاسهم تنزل مطراً لأنها لا تجد سبيلاً للخروج، لا هي ولا العرق المهراق من أجساد منهكة تعبى. أكثر الأيام قسوة في الشتاء القارس لم تكن تعني شيئاً بالمرة

عندهم، لأنهم لم يكونوا يشعرون به أبداً جراء اكتظاظهم المتواصل. مع إنهم كانوا يفقدون ما عليهم من ثياب في التعذيب، وعند انتهاء التحقيق معهم يُعطون أيّ شيء يستر عورتهم إلا أنهم لم يكونوا بحاجة لأكثر من هذا. في أحد الأيام انقطعت الكهرباء أو قُطعت فتوقفت مفرغة الهواء عن عملها. نفد الهواء فمات البعضُ اختناقاً لأنه لم يعد هناك ما يكفي للاستنشاق. نعم نفد الهواء، وأعدموا شنقاً بلا حاجة لحبل مشنقة، ومن كان محظوظاً منهم دخل في غيبوبة وأصابته عللٌ استدعى الشفاء منها وقتاً طويلاً. أحد الضحايا كان زميلاً لي في المدرسة الثانوية، وما يزال وجهه يطل عليّ بالخال الذي كان يزين خده كلما ذكرت هذه الزنزانات الفظيعة. هناك أفل نجمه، وغاب للأبد، ولم يزل أهله ومحبوه يتشوقون للمعة خاله ويترقبون ظهوره الذي لم يحن وقته إلى الآن ولو كان رفاتاً.

توزيع المطرح كان من أشد المعضلات التي واجهتهم، إلّا إنهم اكتسبوا خبرة كبيرة بمرور الأيام أورثوها للأجيال اللاحقة منهم. بما إن عرض الزنزانة متران، إذن فهو يكفي ليمتد به أيّ شخص فيصار إلى أن ينام أربعة عشر شخصاً على جنوبهم اقتصاداً للمسافة بطريقة متعاكسة، قدم أحدهم عند رأس صاحبه، لأنه من المحال أن يستلقي أحدهم على ظهره. يذهب أربعة أو خمسة أشخاص إلى دورة المياه

ليجلسوا فيها، فيما يقف عشرة متكئين على الحائط. يبقى خمسة أشخاص أو عشرة حسب العدد الموجود، هؤلاء هم اللقالق، اذ يستحيل ان يجدوا مكاناً لهم. من يقف على الحائط يجده سنداً له وداعماً، أما من يقف في الوسط فعليه ان يظل واقفاً كاللقلق على ساق واحدة، يستبدلها بالساق الأخرى عند التعب ويظل مواظباً على وقفته بلا أيّ عون يسنده أو يتكئ عليه.

هذا الوضع كان يستمر لأربع ساعات كاملة، تحدث بعدها مناوبة بين الواقفين مع النائمين وهكذا دواليك. كان من المألوف أن يسقط بعضهم مغشياً عليه إرهاقاً، لأن الأجساد منهكة من التعذيب معرضة للاعتلال، بل هناك من فارق الحياة لهول ما تعرض له ولسوء التغذية. الطعام المتوفر لم يكن يساعد على المقاومة، إذ كانت تقدم ثلاث وجبات في اليوم في كل واحدة منها رغيف (صمون) هش مصنوع من طحين الذرة، يذوب سريعاً في الفم ولا يسد جوع أحد، مع دجاجتين في العشاء على الجميع تقاسمها. أما في النهار فالحصة المخصصة لهذا العدد الكبير لم يكن سوى بضعة أكواب من الرز، وفي الصباح توزع علبة جبن على شكل مثلثات مع ثمانية أقداح شاي. مع هذا المقدار الضئيل من الطعام كانت الأقدام تتورم من جراء الوقوف المتلاحق. المعاناة الأكبر كانت في دخول الخلاء، إذ ينبغي خروج من

فيه، وعليهم إيجاد مكان مؤقت وسط هذه الكتلة البشرية المتراصة. إنها محنة حقيقية، فكيف تجد موضعاً لخمسة أشخاص في مكان لا يوجد فيه موطئ قدم واحدة؟ هذه المعاناة هي التي دفعت البعض بألّا يحبذ الجلوس في دورة المياه رغم فسحتها والراحة من عناء الوقوف اللقلقي، لأنه كان عرضة لتهديد مستمر بالإخلاء. كم هو مقرف أن يواجه المرء خيارين لا ثالث لهما إما الوقوف لقلقاً أو الجلوس في مرحاض.

هذا الضيق الأسطوري وقسوة الأغلال لم تفت عضد المعتقلين الذين كانوا يحملون في قلوبهم عزيمةً هائلة وإرادة جبارة. إذ إن هذا العذاب كلّه لم يمنعهم من عقد ندوات تحدثوا فيها عن أمور ثقافية وتبادلوا معلومات وأجروا نقاشات وحوارات في أمور شتى، وجعلوا من هذه الزنزانات مدارس ثقافية. لم تنجح كل هذه القسوة في إخماد حس المعارضة للظلم، بل كان يزداد ويترسخ في صدورهم كلما ازداد عذابهم، كأنه مسمار يزداد ثباتاً كلما تضاعف الطرق عليه. كانت عرى التضامن تتوثق فيما بينهم، ولم يفقدوا خفة الدم ولا غادرهم حس الفكاهة والتندر، بل حضرت المزحة بصورة دائمة وبعضها بقي خالداً عصياً على النسيان. تأمل أحدهم في الوقفة بقدم واحدة، فقال لو قيض لي يوماً الخروج فسوف أصنف كتاباً يحكي يومياتي أسميه "الوقفة

اللقلقية في السجون العفلقية". هل يمكن فعلًا لعاقل يملك قلب إنسان أن يجد مبرراً لهذه الجرائم القبيحة، أو أن يتغاضى عنها وعمّن وقف وراءها، أو أن يتهاون مع مرتكبيها!

24

قبل أن يحين موعد محاكمتنا، انتشرت كثيرٌ من القصص القصيرة دونتها ذاكرتي المشحونة بكثير من الوقائع الثقيلة. هناك أصناف متنوعة من المعتقلين لأسباب أمنية، ولا يمكن أن يصنفوا جميعاً لأسباب سياسية، أو ذوي نشاط معارض، بل إن بعضهم كان من اتباع السلطة وأجهزتها القمعية. جاءنا يوماً شخص ممن يسكن منطقة قريبة من الحدود السورية. تبادلنا الحديث معه من باب الفضول وحسب، ولم نقم بأيّ نشاط خلال وجوده معنا. احترزنا كثيراً منه لسبب لا يخفى، وكما جاء غادر بلا أثر ولا مشاعر خلفها عقبه. مرّ علينا فلاحون ورعاة وطلبة لأسباب كثيرة لكنها لم ترق لمستوى يُعرض أصحابها لخطر حقيقي مثل الذي كنّا فيه. قص عميل المخابرات هذا علينا نشاطه التخريبي لصالح المخابرات العراقية في سوريا من تفجير بعض الأهداف المدنية هناك، وبعض الأعمال الإجرامية الأخرى. قال لنا أنه اعتقل بعد عودته من السجن في سوريا تحسباً من كونه عميلاً مزدوجاً للمخابرات على طرفي الحدود. وكان يبدو مرتاحاً مطمئناً غير قلقٍ من وجوده معنا، وفعلاً لم يتعرض لأيّ أذى جسدي، وعلى الأرجح قد أطلق سراحه فقد غادرنا باحترام واضح. حدثنا عن السجون السورية وطرق التعذيب فيها، مثل وضع

المعتقل في عجلة يتم دحرجتها من علو، وهي طريقة لم نتعرف عليها في المعتقلات الأمنية العراقية. ربما لم تكن تعجبهم لأنها قد تكون متخلفة قياساً لما عندهم من وسائل أكثر تطوراً، أو لأنها أقل فعالية قياساً بما يملكونه من وسائل تعذيب على وفق مواصفات عالمية. فالقيود مثلاً صناعة رومانية، وطرق التعذيب حصيلة نصيحة من خبراء أجانب. في أحد الأيام رأيت وفداً يتجول في مديرية الأمن، كان يبدو من سحنهم أنهم من إحدى دول شرق آسيا.

كانت هنالك زنزانة كبيرة تضم عدداً كبيراً من المعتقلين لأسباب أغلبها غير سياسية بالصميم، وإن تعلقت بها في زمن كان كل شيء ممكن أن يصير تهمة سياسية. كثير من هؤلاء كانوا قرويين بسطاء اعتقلوا في حملة تأديبية جماعية في مسعى من السلطة لإنزال العقاب والقصاص بسكان القرى وإن خرج منها رجل معارض واحد. هذه الحملة التأديبية القاسية كانت بسبب نشاطٍ معارضٍ مسلح كانت تقوم به جهات يزيدية في مناطق شمال العراق متاخمة لسوريا. كان الحرس يعاملهم بازدراء واحتقار وتكبر بغيض، ويسخروهم بالقوة للقيام بأعمال التنظيف في مديرية الأمن رغم إن أغلبهم كانوا من كبار السن. كان مشهداً مفجعاً أن ترى حارساً طائشاً قد بلغ للتو العشرين من عمره، وهو يذيق العذاب المر لرجل أربعيني، ويسخر منه. لم يكن غريباً أن ترى عنصراً امنياً نزقاً

يحثه على العمل بالزعيق أو بركل مؤخرته. في العادة القرويون أشد الناس تعلقاً بالدين، ويحظى بقدسية كبيرة في نفوسهم أكثر من غيرهم من أصناف وطبقات الشعب، خصوصاً مع الجهل السائد بينهم والسذاجة التي هم عليها. هذه الخاصية وجدها عناصر الأمن فرصة سانحة لإيذائهم بسبِّ معتقداتهم ولعن مقدساتهم. كنّا نتطلع إليهم وهم في وجوم صادم حينما يسمعون تلك الألفاظ البذيئة، وهم عاجزون عن إظهار أيّ من مشاعر الاعتراض على قسمات وجوههم خشية عقاب جسدي ينزل بهم. كان منظراً يفطر القلب حقاً، ويجلي بوضوح مستنقع الحقارة والنذالة الذي خرج منه أفراد الأمن، وحجم الغل الكامن في صدورهم لكل ما يمت بصلة للمشاعر الإنسانية.

لم تتوفر أمامنا حلول كثيرة لتغيير هذا الواقع الصعب الذي يعيشونه، وبالمقابل لم نقوَ على البقاء ساكتين عليه. قدمنا اقتراحاً للحرس بأن الجزء الخاص بنا من ممشى صغير يؤدي إلى دورة المياه، يمكن أن نتطوع لتنظيفه يومياً في سبيل إعفاء هؤلاء القرويين منه. لم يكن هذا الاقتراح يجدي كثيراً في تغيير واقع احتجازهم، فإنهم ونساءهم سوف يبقون مسخرين لأداء هذه الأعمال الحقيرة في قلعة الخوف، كما أنه لن يردع الازدراء والاستكبار والألفاظ الفاحشة ولا الإهانات وأفعال أخرى أكثر قبحاً لا يستبعد حصولها من هذه الضواري

البشرية. كل ما سعينا إليه هو إبعاد هذا المشهد المؤلم عن نواظرنا رحمة بأنفسنا، أكثر مما هو شفقة عليهم، لأننا لم نكن في حاجةٍ لمزيد من الألم والضيم أكثر مما توزع في نفوسنا وسكن جوانحنا. توقعنا أن نكبح مشاهد السخرية والإهانة وأن تسير الأمور بسلاسة، وهذا ما جرى فعلاً في الأيام الأولى، لأننا نقوم بعمل تطوعي ولا نتوقع مضايقة من أحد. غير إنه في أحد الأيام جاء حارس نزق وما اكثرهم. كنت أحمل قطعة مبللة من قماش خرق أمسح بها البلاط وفي هذه الأثناء دفعني بعنف مصحوباً بلفظ سخيف يريد أن يكرر معي ما كان يفعله مع القرويين البسطاء. استدرت إليه مباشرة ملقياً قطعة القماش المبلل على الأرض وفي غضب عارم تقدمت نحوه مزمجراً متوعداً ببضع كلمات حادة. لحسن الحظ كان باب الزنزانة مفتوحاً، مما مكن رفاقي التحرك بسهولة لنجدتي. علا صراخٌ بيننا أول الأمر وحاول يائساً أن يردعهم بالقوة فرفع ساقه كي يركل أحدهم، لكن زميل لي كان أسرع منه فأمسك طرف قدمه وأطاح به على الأرض المبللة وسحق تجبره. عمت الفوضى المكان، وملأ الرعب قلب الحارس من حجم الغضب والإصرار الذي انفجر عليه من زملائي. اضطر للهروب بعَجَلٍ مستعيناً بزملائه الذين هرعوا إليه وجلين والصدمة تعلو محياهم، محاولين احتواء الموقف خشية تطوره إلى ما قد يعرضهم لمساءلة كبيرة من رؤسائهم.

وبين لينٍ من الكلام وزعيق أعادونا إلى الزنزانة التي لم نكن أصلاً في وارد الخروج منها لأننا لم نفكر في هذا بالمرة. كان حادثاً عرضياً طارئاً، ورد فعل صنعته اللحظة لا عن خطة معدة للتمرد أو للعصيان. سارع وأصحابه لإبلاغ دائرة التحقيق كما هي عادتهم في الوشاية والسعي في كل صغيرة وكبيرة، وجاء موفدٌ منها مستفهماً. قلنا له: نحن معتقلون سياسيون نقبل بالتحقيق الأمني على ما فيه، لكن لن نقبل أن يعاملنا أحد كعبيد لأننا لسنا كذلك. مرّ الأمر بسلام، ويبدو أن تخفيف حكم الإعدام كان له أثر أيضاً في ردة الفعل المتعقلة والهادئة من دائرة التحقيق. أبدى مفوض التحقيق (عباس) تفهماً، بل إنه قال كلمة تضمنت إقراراً منه بخطأ الحارس، الذي لم نره بعدها. حملت كلماته رجاءً بالهدوء والتعاون على تمرير القضية بسلام. قائلاً: مهلاً، مهلاً بالحرس إنهم إخوانكم. كلمته زادت عزيمتنا قوة وصلابة، وضاعفت من إصرارنا على ألَّا تثنينا أقسى المصاعب عن الفخر والاعتزاز بحريتنا وكبريائنا في كل آن ومكان نكون فيه.

25

مثقلاً بملل، أضحيت كأني لفافة محشوة بسأم سمج قبيح، قضيت أشهراً تسعة منتظراً الخروج من هذه الحفرة التي صار الوقت فيها جامداً بلا حراك. سأمٌ رسمَ بريشة بشاعته تجاعيد على جسدي وغرز في أحشائي كائناً يتلوى في عروقي مقرضاً جفنيّ في اليقظة والمنام، ويتقلب معي في كل سكون وحركة. حركة! عذراً أيّ حركة هذه التي أتحدث عنها؟ حتى مشاعر الألم أصابها الجمود، وبدأت الذكريات تغادرني مع أوجه الذين التقيتهم من الغرباء، بل حتى الذين أعرفهم. نسيان مثل طمي سيل جارف بدأ يطمر الأشياء كلها وكان عليّ أن أكف عن التفكير بما وراء الجدران، لأنه كان كابوساً يقض مضجعي ويجرفني إلى سعير لا يخمد. فقط من عاش في هذه الصناديق المغلقة، ولا أحد سواه، يعلم ماذا يعني هبوب رياح الماضي العاتية. لن يرى أحدٌ غيره، كيف تتطاير الأشياء في الأرجاء فلا تجد مأوى لها تلوذ به إلّا أبواباً مؤصدة وطرقاً مسدودة، فترجع تدور وتدور إلى أن تفنى رهقاً، ولا تسكن بسكون الريح، بل تخر إلى القاع تتلوى ألماً وتشكو داءً لا دواء له.

عند غبشٍ طرقنا زوار الفجر مندفعين بصخبٍ لا يوائم

إشـراقة الفجـر، وأجبرونـا أن نرتقـي سـلالم كثيـرة صـعوداً ونزولاً، ثم حُشرنا في عربةٍ مغلقةٍ ضمتنا إلى عتمتها، بعيون سملت بخرقٍ قاتمة وأكف شبكت بالحديد ومن ثم إلى عمود أفقي يمتد على طول العربة الصندوق. أُجلسنا على صفيح معدني يشع ببرودة الموت في لهيب أواخر حزيران، وزحفت بنا الزنزانة السيارة في رحلة طويلة نحو مدينة متخمة بأسماء سلام لـم تنعم بها أبداً، ولـم تخذل عادة العرب في تسمية الأشياء بضد حقيقتها. وصلنا إليها والشمس معلقة في كبد السماء تطرق الحديد بعنف كأنها تبحث عن الخبيئة التي يواريها، وهو يصرخ من لفعها سخونة. كانت الشمس تواصل طرقها المجنون، ونحن نأمل من الباب ان يفتح أقفاله، لكنه ظل موصداً. يزداد الطرق، ولكن هذه المرة بأقدامنا على أرضية العربة المصفحة احتجاجاً مع تزايد ارتفاع حماوة الحديد. نرنو بعيون مغمضة إلى أيّ فرد يولج مفتاحاً في الأقفال لنغادر صخب الشمس وصرخات الحديد.

كان هناك بابان في هذا القفص المتحرك، بابٌ داخلي مصفحٌ مغلقٌ علينا، وبابٌ خارجي يجلس عنده الحرس. فتحوا كوة صغيرة من أعلى الباب الداخلي فتسرب منها ضوء سطع بشدة من وراء العصابة التي غلفت عيوننا، وصاحوا بنا.

- ضاع المفتاح انتظروا إلى أن نجده.

صفقوا الباب الخارجي من جديد بقوة وهم يرعدون

ويزمجرون غضباً. طاش الضوء وتبدد الهواء مع اختباء المفتاح، وبدأت أنوفنا تفتش عن بقاياه المندثرة بلا جدوى. فار العرق من أجسادنا كما فار الطوفان من تنور نوح. الحديد يستعر غضباً من لسعات الشمس. ارتعشت أصواتنا موقنةً أننا قطعنا نصف تذكرة إلى الغربة الأخيرة في رحيل لم يكن يخطر على بالنا إنه سيكون بهذه الطريقة الفظيعة. أجسادنا تصبّ خزين سوائلها كله عرقاً. كانت تنهمر من أرنبة أنفي، كأنها صنبور ماء مفتوح على آخره. اجتمعت أمانينا بصوت واحد، إلهي أعطنا جرعة هواء خبزنا كفافنا اليوم، ولتقطع بعدها الرقاب. اقتربنا من الإغماء، تلاشى كل شيء ولم نعد نقوى على أي شيء حتى على الموت نفسه. تمايلت أجسادنا إلى الأمام ترنحت، بلغت نقطة الانهيار الكامل الإغماء. هب نسيم ثلجي من ريح حزيران اللافح. امتزجت بالعرق الذي غطسنا به، فنفخت الروح فينا من جديد، وأنهت سكرة قطيع وحوش ثملة برغبات سادية تطوف في دائرة جنون الانتقام حول كعبة الوجع والألم الشبعى بالنكد، والأسى، والأنين.

أُوقفنا بمواجهة حائط من حيطان كثيرة تأملتنا بصمت وانكسار ونحن ندير قفانا لهراوات في هذه المرة وفي غيرها، تنزل على أجسادنا بقسوة تتكسر ولا يرحمها حاملها. يدفعها مهشمة ويسحب جديدة بدلاً عنها، ومع ذلك كنّا لم نزل نملك الجرأة لنسأل أنفسنا والعجب يتملكنا لماذا يحملون

كـل هـذا الكـم مـن الحقـد والضـغينة لأنـاس لا يعرفـون حتـى أسـمائهم. أكثر مـا في الحـروب مـدعاة للقـرف أن تـرى عـدواً يحاربك ويفتك بك بقصارى همته ونشاطه فقط لكي يستمر هـو رازحـاً تحـت العبوديـة. ثـم حشـرنا في زنزانـةٍ لا تكفـي أن يمتد فيها أحد، في مؤخرتها كان يوجد مرحاض. مثل طفل يحظى بلعبة جديدة انتشينا فرحاً به، فهذه أول مرة يصبح في قبضـتنا كنيـف بعـد أن حجزتنـا عنـه طـويلاً سلاسـل وأقفـال وأبـواب مصـفحة. وسـط الدهشـة والفـرح اغتسـلنا بمـاءٍ وفيـر رأينـاه لأول مـرة منـذ ردح طويـل، فـأزاح عنـا وطـأة السـفر وإجهاد الرحلة المرة. فتحت الأرض ذراعيها لنا، فصارت هي الوسـادة والغطـاء والفـراش. اسـتقبلت غفوتنـا عليهـا، تنتظـر مخاضاً جديداً بالشجن لن يكون الأخير.

طرقتنـا شـمس أربعـاء حزيرانـي لأول مـرة علـى خـلاف عادتها معنا بالاحتجاب وراء أسوار المعتقلات. أطلت علينا مـن نافـذة سيارة الدوريـة التـي راحـت تشـق الزحـام، وتاهـت نظراتنا في الشوارع لتنشر الملح على الجروح، وتسقينا خمرة ألـم الفـراق ممزوجـاً بـدموع تسـربت مـن المـآقي بـلا اسـتئذان تروي ظمأ النفوس. أيتها المدينة التي طالمـا نثرنا عشـقنا لـك على أوراق سرية نرسم لوحةً جميلةً فوق أسـوارك التي كانـت تخنق أنفاس سـاكنيها. في طرقاتـك سُـحنا وَلهين نبوح بهوىً تيم قلوبنا، همسنا به في آذان من أوشـك أن يبلغ سـن الرشـد

ويقع في غرام أحلام الحرية والعيش الرغيد لكل الناس. خلطنا كل هذا بخلاصات كتب وعصارة أفكار نتبادلها في غرف صغيرة منزوية نرسم مستقبلاً جميلاً لا نعرف متى يحل أوانه. إيهٍ أيتها المدينة، مالك نسيت كل هؤلاء العشاق وأشحت بوجهك عنهم بعيداً؟ لم لا تقولي للمتسكعين على أرصفتك، إن قيس المفتون عشقاً بك ما عاد يراك إلّا من خلف قضبان؟ وأنت أيتها العربة مالك تندفعين بهذه الخطوات مستعجلة، لا تلتفتين يميناً ولا شمالاً، تخوضين في بركة حزن يتطاير منها وحل الأسى فيغطي الوجوه الشاحبة؟ تأني، تمهلي، تريثي فما بعد هذا الخلاء الواسع هوة من نسيان مجنون. شبحت نظراتنا بعيداً تلتهم كل ما تراه ولم نكن بحاجة إلى نصيحة من ناصح لفعل هذا ومع ذلك لم أكبح نفسي من القول بصوت عال.

- تمعنوا جيداً وأطيلوا النظر فإنها آخر النظرات، نبوءة عن دهرٍ عصيب قادم أتى بها وحي العذابات المتواصلة.

26

بلغنا مبنىً قذراً في ثكنة عسكرية، ثم نزلنا عبر سلم قصير إلى صالةٍ مملوءة بكراسٍ خشبية على شكل أريكة طويلة لا مساند لها، لونها أخضر مقتبسٌ من لون مخافر الشرطة. مصاطب موزعة في اتجاهات شتى، كأعمار الجالسين عليها. لا جامع بينها ولا قاسم مشترك. شيباً وشباناً بملابس مدنية متهرئة وبعضها عسكرية. يجلسون طويلاً في انتظار محكمة لن تدوم سوى دقائق قليلة. اضمحل الخوف وانمحى الارتياب من قلوبنا وأفعمنا بهمةٍ زائدة تتنفس ثمن الحرية وتهزأ بالظلام. نعم طمأنينة وسكينة حلّت علينا ولم نعد نبالي بما ينتظرنا. نزعنا ألبسة التوجس ورحنا نتطارح الكلام مع حرسٍ انتشر في كل مكان من القاعة، أو مع صحبة لم نقابلهم من قبل، ولا رأيت أحداً منهم بعدها أبداً. ساعات من ترقب ونحن نرى أفواجاً تصعد، وتنزل وقد غاب منها وجوه كثيرة سيقت من باب جانبي إلى قسم الإعدام.

سمعنا لأول مرة بمواد في قانون العقوبات، وسألنا بعض الحاضرين عنها وعن الأحكام المتوقعة على وفقها. فكان واحدًا من أغرب الأجوبة التي سمعتها طوال حياتي. أنها مادة قانونية تشمل أحكاماً من الإفراج إلى الإعدام! جوابٌ كان يلخص حقيقة الإجراءات القضائية التي تتم في هذه

المحكمة. لا منطق فيها تماماً، ولا تدري ماذا سَيُفْعَل بك لأنك باختصار لا تعرف عن تهمتك شيئاً سوى أنك عدو للحزب للثورة، ولا يوجد أيّ دليل ضدك على هذا الاتهام سوى الاتهام نفسه. لحسن حظنا إننا قدمنا للمحاكمة في حقبة قللت فيها أحكام الإعدام بشكل كبير. في حقبة سابقة امتدت إلى نهاية السنة الثانية من الحرب، كان الإعدام يشمل كل متهم بغض النظر عن السن أو الفعل الذي ارتكبه. أو بغض النظر عن أصل التهمة التي وجهت له، سواء كانت عن وشاية، أو نميمة، أو اعتراف منتزع تحت تعذيب أراد صاحبه الخلاص منه فأوقعه على غيره ولم ينقذه هو الآخر كما كان يرجو. في تلك الفترة الدموية كان من ينجو من الإعدام ثلةٌ قليلةٌ أغلبهم بأعمار دون الثامنة عشر. ليس بمقدوري أن أقدم عدداً دقيقاً للذين حكموا بالإعدام في تلك الفترة، إنما باستطاعتي رسم صورة يمكن أن تقرب المشهد لمن لا يعرف خبايا محكمة الثورة. كانت المحكمة تنعقد ستة ايام في الأسبوع من الصباح إلى منتصف الليل. أطول مرافعة لم تكن تتجاوز الربع إلى نصف ساعة، هذا إذا كان عدد المتهمين كبيراً، ومن ثم تتم تلاوة الأحكام في غضون دقائق قليلة. أذكر واحدة من القضايا تشبه العشرات أو المئات من الدعاوى. صعد في هذه القضية لمواجهة الحاكم العسكري أربعة وسبعون متهماً عاد منهم خمسة فقط بحكم السجن

المؤبد، والبقية جميعاً خرجت من الباب الجانبي إلى قاطع الإعدام.

صعدنا سلماً قصيراً لنقف حفاة بمواجهة ثلاثة قضاة بملابس عسكرية. جلس على اليسار ضابط أشقر بوجه متجهم طويل، كان مظهره يحفزنا لتشبيهه بعنصر جستابو نازي كما كنا نراهم في السينما. بدأ يلقي خطاب الادعاء ويصفنا بالخونة العملاء المتعاونين مع الأعداء ضد القائد العظيم ومسيرة الثورة وقيادتها الحكيمة. لم نصغ إليه، لأنه منذ أول كلمة أفصح عن مراده وهو مطالبة الحاكم بإنزال أقصى العقوبات وأشد القصاص بنا، أي إصدار حكم الموت علينا. سألنا الحاكم العسكري عن أسمائنا، ومن ثم سؤال آخر هل أنت متهم أم بريء، وحينما حاولنا توضيح شيء ما، كان يرد علينا مقاطعاً حازماً بكلمة واحدة.

- اخرس!

هذا الحاكم تعرفت اليه للمرة الأولى هنا بزي عسكري ونحن نقف أمامه بملابس رثة، حفاة الأقدام، محظورين من توكيل محام، ومحرومين من الدفاع عن أنفسنا. أنزل علينا هو ومعاونوه حفنة سباب، فقط لأننا قلنا له إن هذه الاعترافات جاءت تحت التعذيب. كان يجلس كأنه سربوس حارس العالم السفلي جذلاً مزهواً بمهمته الإلهية في اقتيادنا إلى الجحيم. في مرة غيرها بعدئذٍ رأيته يقف ذليلاً في قفص

الاتهـام، مـدعياً إن العقـال العربـي هويتـه ومطالبـاً بحقوقـه المدنية. لا أدري ما الذي كان يخطر بباله وهو يقف في هذا القفص، هل تذكر نهر الدماء الذي فجره من أعناق الشباب نساءً ورجالاً بأحكامه الجائرة الظالمة؟ وهل تذكر الجبروت والاستعلاء الذي كان عليه هو وزمرته؟ وهل مرّ عليه طيف الأمهات الثكلى؟ وهل عبرت من أمام ناظريه جموع أطفال قُصر ذاقوا عذاب السجن بأحكام هزلية أصدرتها محكمته السخيفة؟ كم تمنيت لو كنت أقدر أن أرى عقله في تلك اللحظات، وكيف تدور الأفكار والخواطر فيه وهو يجلس في القفص نفسه بمواجهة القاضي. أريد أن أعرف كيف يفكر هؤلاء عند مواجهة الموت في نهاية مسيرتهم الدامية، هل يرددون مقولة فرعون الخائبة وهو يغرق في يمّ موسى، وهل يداخلهم ندم، وهم يرون أرواح الهاربين الخائفين منهم، الذين كانوا يستعبدونهم ويقتلونهم لأنهم مستضعفون فقط وليس لذنب ارتكبوه؟ أرواح ضحاياهم تودعها العيون بأنهار الدمع، تسقي عطشها، وتبني لها محبة الناس قصوراً ترقد فيها بأمان، أما هو وأسياده القتلة فإنهم يدورون مثل جيفة نتنة لا تجد لها موئلاً تستريح فيه لا في برٍ ولا في بحر ولا في سماء. من بابٍ على اليسار خرج علينا رجل أعرج يلبس جبة محامي دفاع، ينطق بعبارة كان يكررها في جميع المرافعات التي ينتدب إليها:

- إني فتشت طويلاً في قوانين الأرض والسماء فلم أجد مادة قانونية ترحم هذه الحفنة من العملاء وأطالب بإنزال أقصى العقوبات بهم. تبرع بنا مجاناً لأقسى قصاص، مع أنه طالب بملاحظة أعمار اثنين منّا كانا دون العشرين عاماً، ملتمساً المحكمة الرأفة بهم. لم تدم المرافعة أكثر من عشر دقائق على الأكثر، ونزلنا ثانية إلى القاعة بحسب ادعاء الحاكم للمداولة، ثم نودي علينا ثانية، لننتقل إلى رحلة عذاب جديدة ونذهب بعيدين منسيين تحت الأرض تحت عنوان السجن المؤبد وراء أسوار عالية تحجب عنّا كل شيء.

كان مشهداً زمنياً قصيراً جداً، لكنه ثقيل للغاية ناء بعبء حمل حقبة مظلمة امتدت لثلاثة عقود. في ذلك المبنى القذر بكل ما فيه، جرت أحداث كثيرة في دقائق قليلة لا يمكن مغادرتها سريعاً. كل واحد منها يصلح أن يكون نافذة كبيرة تشرف على تلك الحقبة المظلمة، ولا يحتاج أحدٌ إلى تأمل أو فلسفة ليستبين الذي جرى. فقط عليه أن ينظر من هذه النوافذ المشرعة وسيفهم بسهولة ما جرى، وما يجري.

وجوهٌ شاحبة يكتظ بها المكان تتوزع على مقاعد خشبية تحمل تنوعاً بشكلٍ غريب في الملامح والأعمار، وقطعاً في الأفكار والانتماءات. لم يكن يوحدها شيء سوى الظلم الواقع عليها. عيونها شاخصة إلى اللا شيء، حائرةٌ تنتظر مستقبلاً مجهولاً، ولا تدري لماذا هي هنا بالأصل. ما لفت

انتباهي بشدة في ذاك اليوم الرمضاني القائظ ضخامة عدد من لا دخل له بأيّ شأن سياسي حاضراً بهذا الكم الكبير في قبو محكمة مختصة بمحاربة أصحاب الرأي. كنت أعرف أن الظلم فاحش، لكن المشهد كان أكبر مما يستوعبه عقلي، بل خيالي. رغم الأحاديث القصيرة عن المواد القانونية، التي أجريتها أو سمعتها في فناء القاعة المنخفضة عن مستوى أرض المعسكر الذي كانت فيه، إلّا إني أدركت إننا سوف نقف أمام قاضٍ لا يفرق بين أعمى وبصير. لم يكن له من الأمر شيء سوى النطق بجملٍ كتبها غيره وتبرع هو للتلفظ بها. كأنما كان يسعى للوقوع يوماً تحت واحدة منها من حيث لا يشعر، وقد حصل له ذلك بالفعل.

رائحة الظلم في كل زاوية تخنق فضاء القاعة الجرداء من الأثاث إلّا من مروحتين معلقتين على علو شاهق، إلّا أن الذاتية وخواء الإحساس كان ماثلين في حركات وايقاعات بعض الحمقى والضعفاء ممن كان يحسب على المعارضة السياسية، وهو لا يفقه حرفاً واحداً من أبجديتها. فبينما كانت الأحكام تصدر تباعاً وترسل إلى المقصلة المعتقلين زرافات ووحداناً، وفرقاً أخرى إلى السجن بلا ذنبٍ مقترف، كانت هناك مجموعة من المعتقلين تقفز مهللة بمجد القائد، وهي تهبط طائرة من باب المحكمة الداخلي المطل على الفناء الداخلي وهي تصرخ يحيا العدل. أيّ عدل هذا الذي رأيتموه

وأنتم ترون إخوة معكم يساقون للموت أو السجن؟ هل ينتصب ميزان العدل مستوياً فقط لأنكم ظللتم أحياء، ولو غرق الكون كله في بحر الظلام؟ لم يخف أحد رفاقي استنكاره وانزعاجه المفرط من تلك الصرخة الحمقاء، وعلق بصوتٍ عالٍ مستهجناً هذا الذل المقزز. كان أمراً مريعاً فعلاً أن تسمع هذه الصيحة من شخص صعد للتو حافي القدمين مجرداً من كل حق مدني وإنساني، بل ومن كل شيءٍ يملكه، حتى ملابسه الداخلية سلبوها منه ويرجع من المكان عينه الذي أغتصب فيه يترنم ويتغنى بعدل مغتصبه. المنادي بهذا التملق الغبي ليس بأحمق وحسب، بل هو وأمثاله من مكّن العتاة المجرمين، لأنهم كانوا جيوش الذل التي حارب الطغاة بها الأحرار.

كان الحاكم العسكري يحاول أن يضفي على جلسته الصورية شكليات قانونية، ليظهرها على وفق المقاييس القانونية؛ فسألنا، وبالتأكيد سأل كل المتهمين الذين مروا عليه قبلنا وبعدنا السؤال نفسه.

- هل عندك محامٍ؟

الإجابة المعتادة تكون بالنفي فمن أين يتأتى لمتهمٍ محروم من رؤية الشمس أن يوكل محامياً، لكنه حينما سأل أحدنا ردّ عليه بغير المعتاد، بل بجوابٍ ساخر.

- سيدي، هو آني نعال ما عندي، من أين آتي بمحام؟

وطبعاً امتلأت بعدها آذاننا بحفنة ألفاظ كلها زجر وسباب. الثياب الرثة والإعياء والشحوب وآثار التعذيب البادية على كل أحد لم تكن خفية عن أغفل مغفلي الدنيا. من أول لمحة، ولا يحتاج حتى لنظرة واحدة، ليعرف أيّ قسوة بالغة تعرض لها السجناء. مع هذا كان القاضي العسكري يبدي استغرابه لما يرفض السجناء التهم الموجهة لهم، ويزدري إنكارهم الاعترافات المدونة بقولهم إنها انتزعت تحت التعذيب. وقد بالغ في إبداء سخريته حين أنكر أحدهم الإفادة الموجودة أمام الحاكم فقال له:

- هل تعرف يا سيدي (هكذا كنا نجبر على مخاطبة الضباط والمسؤولين الكبار) لو إنك أنت بنفسك تعرضت للتعذيب الذي تعرضت له، لاعترفت بأيّ تهمة توجه إليك، ولو كانت الانتماء إلى البوليساريو.

لم أجد وصفاً لتلك المحكمة يليق بها ويحاكيها سوى أنها تشبه لعبة الروليت الروسي، ولكن بالمنكوس. أسطوانة محشوة بالرصاص كلها وواحدة فقط فارغة، ويقال جرب حظك فقد تنجو من الموت. بدأ الحاكم يلقي الأحكام علينا، وكانت تبدأ كما هو معتاد من أقل الأحكام. ذكر العقوبات مشفوعة بموادٍ قانونية وبدلالة مواد أخرى لا أعرفها، ولم أسمع بها، ولم أصغ إليه وهو يتلوها، لأني كنت أدرك إنها مهزلة وكوميديا قاتمة السواد لا علاقة لها بأيّ قانون سوى

شريعة الوحوش. المضحك في هذه القوانين إن المادة التي كانت تُعدّ مخففة في الزمن الذي حوكمنا فيها هي عينها التي حكم بها آخرون بعقوبة الإعدام قبل سنتين فقط. كان القانون مرناً جداً ولا يعدو عن جرة قلم، وسيبقى هكذا إن لم يصبح له سطوة على القائمين به. حينما بدأ بتلاوة الحكم الأخف لثلاثة رفاق كانوا معنا، انتقل بعدها إلى الحكم بالمؤبد على شخص آخر، لأنه كان دون سن العشرين سنة. لم يتبق إذن بعد المؤبد سوى الإعدام فتسمرنا بذهول ننتظره، لكن المفاجأة إن حصتي مع اثنين آخرين كانت السجن المؤبد أيضاً، وهذا يؤكد مقولة ضابط التحقيق بأن حكم الإعدام المقرر لنا قد ألغي، وأن الأحكام سوف تكون خفيفة. تنفسنا الصعداء، وتبادلنا التهاني جميعاً، لأن المقصلة اخطأت اعناقنا. أحدهم كنّا نشعر منه بغضاضة لضعفه المشين أمام المحققين، وحينما سمعنا نتبادل التهاني حاول مجاراتنا، لكني نهرته بقسوة وبانفعال مصطنع. لأني في الواقع لم أكن منزعجاً من الحكم بالسجن المؤبد أبداً، بل كنت أتوقعه، وأتمناه كأفضل الحلول المتاحة، ولم تحدث عندي ردة سلبية حينما سمعته. كنت أريد أن أوبخه على ضعفه، ومع هذا فقد اعتذرت له لاحقاً لهذه القسوة. كنت أرى أفعاله مزيجاً من جبنٍ وتهورٍ، وغفرت له وسامحته تماماً، لأني كنت مدركاً بأنه ضعيف التكوين نفسياً، وقد حشر نفسه في موضعٍ حرجٍ لا

يناسبه بالمرة.

العمل الثوري ليس هواية أو لعبة يمارسها أيّ كان، ولا هو نزوة أو طيش مغامرين، بل هو منهج برؤية مسبقة وببصيرة واضحة. السبب الأبرز في فشل كثير من الأعمال التي تبدو في الظاهر ثورية، مع أنها لم تكن هكذا في حقيقتها. كانت مجرد ردود أفعال أو أنها طيشٌ ومغامرة. الثورة فعل إنساني، وليست رد فعل على ممارسة خاطئة. هي منهجٌ لتحرير الإنسان من عوالق الغريزة، ولا تتوقف في أيّ زمن، بل تستمر مع رحلة الإنسان في هذا الوجود إلى الأبد. الثوار يواصلون الثورة، أما الطائشون والمتظاهرون بها ينتهي غضبهم الهائج الذي يشبه الثورة حينما ينالوا ما تتلهف إليه غرائزهم الظمأى، وليس لأنهم تحرروا.

27

حملت ما تبقى من ممتلكاتي بعد أن أصدرت المحكمة حكمها بمصادرة المنقول منها وغير المنقول. دسستها في قميصٍ جاءني بعد زيارة لتركيا قبل الاعتقال بعام واحد. كان قميصاً مميزاً، كنت ادعوه مراد، وكنت أشعر بأنه جزء مني منذ أول يوم حصلت عليه. كانت له نضارة الشباب بمربعاته الحمراء السوداء، مطرز على ياقته من الداخل(مراد)، ولذا أطلقت عليه هذا الاسم. ظل مرافقاً لي لمدة طويلة، وكان إثباتاً على وجودي حياً فيما بعد حينما فاء إلى أبي بعد حين كأنه يحاكي قميص يوسف في شهادته على ما حاوله الأشقياء من طمس الحقيقة. أخوة سوف يظلون مبرقعين بخطيئتهم أبداً، وحينما يمر ذكر ضحاياهم أمامهم فسوف يبوحون بسر خبيئة نتنة تضمر الحسد، وتصنع قتلة مجرمين، يبقون حائرين في طمس جناياتهم التي عافها الذئب واستنكف منها، ولكنهم لن يتوبوا عنها أبداً.

وظبت مراد بعناية زائدة كي لا يفقد شيئاً من محتوياته. سرحت بخيالي في وداعٍ رفيق شجاع، لم الق نظرة الوداع الأخيرة عليه فقد سبقني إلى تلك المحكمة المهزلة، وهناك اختفت آثاره للأبد من دون الآخرين الذين كانوا معه. تلاشت آثاره من هذه الدنيا. لم أعد بعدها أراه متوثباً متحفزاً، ولم

يصر بمقدوري أن أُسمع إذنيّ كلماته المنبثقة من بحر التحدي ولا أن أنتشي بضحكاته الساخرة من الأدعياء. رمقت جدران المحكمة بأسى وجزعٍ، عاتبتها كيف حرمتني من وداعه وهي التي احتضنت آلام وتأوهات عذابٍ غمد نصله عميقاً فيّنا جميعاً.

عاتبت هذه الحيطان وجدر زنازين كثر مررت بها برفقته، كيف له أن ينفرط منكن وأنتن اللاتي احتضنتن نغمات الدفء وكل الأثار التي نحتت شعارات الثورة، وأبيات الشعر التي كل ما فيها يفيض حباً وجمالاً وثورة؟ حيطان دونت وصايا من غادر الدنيا سريعاً وتاه جسده في كثبان رمل تطيح بها الرياح، وتسافر بها إلى جهات الدنيا الأربع. لم تزل فلوات وطني تضمهم إلى حناياها، تخبئهم في قلبها بعيداً عن أعين الناس، بل عن بواصر ذويهم ومحبيهم تخشى عليهم أن يضيعوا في المدافن مع الآخرين، لأن المقابر لا تليق إلّا بالموتى فكيف لها أن تحويهم وهم الأحياء. هم وحدهم أحياء في هذا الكون الفسيح الوسيع، وخلاهم موتى ما لم يلحقوا بركبهم. أرواحهم لم تزل سائحة في براري وصحاري الوطن تلاحق حلمها في الخلاص من سوأة ابن العاص المقيمة في مضامير الفروسية والنزال. لم تزل أرواحهم ترنو إلى يوم يخلو من حشود القردة المهرجين الدهاة الثمل برجسهم وهي تنزو على منصة رئاسة خلقت لحكماء أنقياء

الفطرة. لم تزل أرواحهم تتطلع ليوم لا ترى فيه صنماً يطوف حوله همج رعاع ينعقون مع كل ناعق.

عند غبش لا أعرف مطلعه، زخر رفيقي مع أصحابه بالحياة استعداداً للرحلة الأخيرة، رحلة إلى نافذة تشرع فيها للريح أجنحة تنقل رغبة المتمردين عشاق الحرية في رفض الموت. نافذة تنقل إلى عالم الحقيقة عشاقاً سلكنا معهم الدروب كلها، الجد والهزل، الضحك والبكاء، والمرح والشقاء. ارتحلت بهم الريح بعيداً عن الأوهام، وتقربوا من مجاورة نبع الوجود، لينعموا هناك بالسكون الخالد والراحة الأبدية. ينثرون من عليائهم على عالمنا بذور الحياة، عسى أن يتلقفها زراعٌ جدد مثابرون لكي تستمر على هذا الكوكب الزاخر بالخطايا. لعل يوماً يأتي يتحقق فيه وعد السماء، بإنها تعلم ما لا يعلمه أيّ أحد. ويصدق الكل قولها إن كان ملاكاً لا شغل له غير التسبيح والتقديس أو كان شيطاناً مريداً يجلس على الطرقات يغوي الخاطئين: بأن الشهداء المستضعفين دوماً المقيمين في عليين، هم وحدهم العالمون، وغيرهم جاهلاً كان أو مستكبراً عليه أن يسجد لهم، فهم الإنسان الكامل وهم أئمة البشرية كلها وهم ورثة الأرض.

صحبة لنا غادروا في رحلتهم الأخيرة كل هذه الأحلاف الخبيثة المتواطئة ضد غريزة التمرد فيهم، لأنهم كانوا حقيقة الإنسان التي عجز عن بلوغها الموغلون في شهوات الجسد.

رفاقٌ كانوا هم الماء الذي أعطى الحياة لكل شيء، وما يزال يفعل. من رمادهم يصنع الشعراء قصائد، وبدمهم يكتب الأدباء روايات، ومن أجسادهم ينحت المثّالون نصباً. ولولاهم لحار المصممون الأذكياء في متاهة البحث عن أسماء المباني والشوارع والساحات وقاعات المثقفين، ولولاهم لتوقف المؤرخون عن تدوين تتابع الأشياء. لولاهم لكان الكون سكوناً محضاً، بل عدماً. هم إكسير الحياة، هم كانوا الكلمة في البدء، وهم أيضاً مسك الختام، هم قطر الغيث العذب الذي يسقي الجمر في قلوب الأحرار الولهين. هم ليسوا كغيرهم محض سراب يتوسل الصخر متملقاً بعبارة فجة افتح يا سمسم عسى أن يحظوا بكنوز الخرافة من سندباد الوهم والخيال، بل هم حقيقة الوجود. نثروا على الصخر القاسي دمهم فشقوا الأنهار، وانكفأت الأوثان كلها خاضعة ذليلة لهم في كل آن ترتعد خشية من ذكرهم.

هل سمعتم يوماً أن الطغاة يحاربون أحداً غير الشهداء؟ وهل رأيتموهم يسعون لمحو ذكر أحد غيرهم مهما كان؟ ليس بحمقٍ هذا ولا خطل رأي من العتاة، بل لأن الشهداء وحدهم هم حقيقة الخطر عليهم. فهم أحياء لا يمسهم سوى الخلود، وما خلاهم أموات لن يعرفوا الحياة إن لم يلتمسوا سبيل الخالدين. وداعاً يا من كنت أنيساً غفوراً. اغفر لنا لو أصابتنا سنة أو نوم، فقد تعبنا نحن النادبين على العذابات أبداً

من مزاولة الانتظار للحاق برفاقنا، وداعاً وإلى لقاء.

تمت

أربيل

٢٣-٢-٢٠٢٤

٩٠٥٦٣ / ٨١٣
خ ٩٢٦ الهندي ، ناهض
بيت قابيل / ناهض الهندي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٤ .
(١٩٧) ص ؛ (١٤.٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع
.... / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (....) لسنة ٢٠٢٤م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

رياض داخل: Facebook